

الكتـــاب الأول

أغنيـة للخـريف

قصص

عاطف فتحى

المجلس الأعلى للثقافة



الكتاب الأول

- ٢٣ -

أغنية للخريف

قصص

عاطف فتحي



التصميم الأساسي للغلاف محيي الدين اللباد + أحمد اللباد

لوحة الغلاف تمثال للفنان : آدم حنين

القناديل .. والبحر

« يا إلهى .. متى يطلع النهار ؟ » .

قال لنفسه والألم يسحقه ، وسيل من النيران ينصب فى نخاعه الشوكى ويحرقه .

« لابد أنها الحمى » . ترى هل سيصمد حتى يجئ الصباح ؟. كان يود لو ينام بعض الوقت ، لكن الألم الذى راح إيقاعه يتصاعد فى دمه كان أقوى من أى مخدر .

تطلع إلى عقارب ساعته وتبين بصعوبة أنها الثالثة ، ومازال أمامه أكثر من ساعتين حتى بزوغ الفجر . أصغى إلى صوت انهمار المطر على سقف « العشة » المصنوع من الآجر والبوص ، وتقوقع على نفسه أكثر فأكثر لشدة إحساسه بالبرد . كان المطر قد بدأ يهطل بغزارة وعنف ، لم يكف لحظة ولم يهدأ منذ هبط المساء .

أحس بالفزع من صوت الرعد والبرق الذى كان يلتمع على زجاج النوافذ المغلقة ، وضاعف من خوفه صوت الريح التى كانت تصفر بين الجدران الهشة ، وهدير الأمواج الذى ما انفك يعلو وينخفض .

لماذا ياترى تستيقظ الآلام حين يحل الظلام ؟. لماذا تتحين فرصة انفراد المرء بنفسه وعزلته فى فراشه لتغتاله ؟. تذكر كيف كان يستيقظ وقد دهمه الألم قبل انتصاف الليل بقليل ويظل يروح ويجئ فى الطرقة الطويلة الباردة المضاءة بلمبات النيون مستنداً على الحوائط ، مهدهدا أوجاعه دونما جدوى ، ثم يكتشف فجأة أن كل الرفاق الجرحى فى العنابر المكدسة قد استيقظوا مثله واندمجوا فى كورس الأنين المتصاعد .

كان جراح العظام الذى عالجه قد نصحه وقتها ببتر ساقه لأنها - على حد قوله - لن تصمد طويلا ، فالوصلات العصبية تهتكت تماماً . لكنه ارتعب لحظتئذ من الفكرة ، وصمم على بقاء الساق فى مكانها حتى وأن تيبست بعد حين ومات فيها الإحساس ، وحتى لو اضطر إلى تركيب جهاز طبى للحركة ، يضاعف من إحساسه بعاهته .

لكنه لم يكن يتخيل وقتها حجم الآلام التى سيرزح تحتها ولا الثمن الفادح الذى سيدفعه نتيجة لتشبثه برأيه .. أغمض عينيه برهة وحاول أن يتناسى آلامه . فأشرقت على صفحة ذهنه صورة « هند » ودموعها تترقرق فوق أهدابها السوداء الطويلة تأبى أن تنحدر ، وأحس بزلزال عنيف يعصف بإرادته وتصميمه ، ولولا أنها أولته ظهرها فى تلك اللحظة ومضت لكان قد ركع تحت قدميها وتوسل إليها ألا تتركه .

ترى ما الذى أتى به إلى هنا ؟. أى منفى هذا الذى اختاره لنفسه ؟. وأى سلوى تلك التى جاء يبحث عنها على هذا الشاطئ المقفر ؟. وهل يمكن للمرء أن يهرب من هواجسه وأحلامه ؟.

فكر فى مضاعفة كمية الأقراص المنومة ليحظى ببضع ساعات

يستريح فيها من آلامه .. لكنه عدل عن تفكيره ، وقرر ألا يغمض له جفن حتى ينبلج الصبح ، خوفا من مداهمة ذلك الكابوس الذى أخذ يراوده منذ بضع ليال . كابوس كان يرى فيه صورة زملائه من الجنود الذين شوهتهم الحرب والذين رافقوه زمنا فى عنبر الجراحة وهم ينبعثون من رقادهم الطويل ملفوفين جميعا فى ضمادات بيضاء مبتورى الأذرع أو السيقان وقد أصطفوا فى ردهة المستشفى الكئيب يتقدمهم فوق مقعده المتحرك صديقه مجدى عامر .

كانوا يحيطون به - فى الحلم - ويندفعون لمعانقته كلهم دفعة واحدة ، فيغص حلقه بالدموع الحبيسة ويحس بالاختناق ، ولا يلبث أن يستيقظ فزعا وقد أغرق جسده فى بحر من عرق. ترى أكانت لديه رغبة حقيقية فى الموت ؟. هل كان يتمنى لو لحق بزملائه الذين رحلوا ؟. ما الذى جعله يتقاعس إذن عن تحقيق أمنيته ؟. هل كل يأمل فى شئ لم يتحقق ؟.

لم يستطع الوصول بعقله المجهد إلى إجابة محددة ، ولا استطاع أن يزيح عن ذهنه المكدود تلك الهواجس الملحة ، لكنه تذكر مشهد قناديل البحر التى رآها فى الظهيرة على الشاطئ وهى تخرج أفواجا فوق موجات البحر لتلقى حتفها على الرمال .

ترى هل كانت تنتحر باختيارها ؟.. وهل جاء إلى هنا هو أيضا ليموت فى عزلته باختياره ؟ أصغى إلى صوت البحر الذى استكانت أمواجه ، وتحولت شيئا فشيئا إلى وشيش هامس ومنتظم ، وانسحبت الريح مرة واحدة إلى مكمنها الغائر ، وتباطأ إيقاع المطر وخف عنفوانه

ثم مالبث أن انقطع . وأحس بسكون العالم من حوله يتسلل إلى نفسه تدريجياً ، وقرر أن يخرج ليشاهد البحر لحظة الشروق .

* * *

تناول بعض الأقراص المسكنة ثم لف جسده فى بطانيه ثقيلة ، وتقدم نحو الشرفة . تطلع من خلال زجاجها المغلق إلى صفحة البحر المظلمة ، ولاحظ كيف بدأ المد يزحف على طول الشاطئ .

فتح زجاج الشرفة متهيبا وخرج ، كان الجو قد بدأ يميل إلى الدفء ، أضاء مصباح النور ليبدد خوفه واقتعد كرسيا قرب السياج العريض .

روعه منظر القناديل الزرقاء الميتة المتناثرة على الشاطئ ، وتراءت له فى ومضة خاطفة جثة صديقة المعلقة فى الحبل المتدلى من ماسورة الحمام ، وقد جحظت عيناه وهو مستلق فوق الكرسى ذى العجلات . وتذكر آخر مرة شاهدة فيها عقب الموقف العاصف الذى حدث بينه وبين زوجته . كان يصرخ فيها بحده ، ويرجوها ألا تزوره يوميا فى المستشفى كما تفعل .. وحين عاتبه على خشونته معها ، قال له أنه أرغم نفسه على هذه القسوة ، وأنه كان مضطرا لذلك ، إذ كان على يقين من أنه سيظل مابقى من عمره - إذا كان له عمر - مجرد جثة متحركة ، وسوف يكون عبئا على زوجته المسكينة وعلى الآخرين ، مادام حيا . وأنه لأهون عليه أن يموت بدلاً من الاستمرار فى الحياة مع العجز الشائن .

لماذا إذن عجز عن اتخاذ قراره ؟. لماذا جبن وتخاذل وجاء إلى هنا لينفرد بنفسه ويجتر آلامه ؟. هل صار يستعذب إيلام النفس .. وإيلام الآخرين ؟.

تذكر دموعها وهى تلتمع على أهدابها فى صمت ، وتشبثها بعنقه للمرة الأخيرة وهى تقول :

- أرجوك لا تضيعنى .. إذا كنت تحبنى حقا ، فلابد أن تتخذ القرار الآن ، وإلا فلن تراني بعد ذلك أبداً .

كيف طاوعه قلبه على ارتكاب هذه القسوة ، ويمثل هذا الإصرار تجاه الإنسان الوحيد الذى يعرف مدى حبه ؟. لقد جاءته فى صباح اليوم الذى سيعقد فيه قرانها على قريب لها لتمنحه فرصة أخيرة ، لكنه أهدرها .

كان بإمكانه أن يطاوعها .. كان بإمكانه أن يتزوجها . لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة خوفاً من المستقبل .. خوفا من نظرة الندم التى قد يلمحها فى عينيها ذات يوم ، وخوفاً من استمرار الحياة بينهما بعد ذلك تحت مظلة الإشفاق على حد تعبير صديقه الراحل .

خرج إلى الشرفة ، وراح يتمشى على الشاطئ . لم يحاول أن يمضى بعيداً .. حتى لايصعب عليه الرجوع . كانت الأمواج الصغيرة تقفز على ساقيه من آن لآخر .. لم تكن المياه باردة كما تصور . تذكر دفء المياه فى منطقة الشيخ زويد التى زارها بالأمس ، وشفافية البحر التى تنم عن القاع الأشهب عبر مسافات طويلة فى العمق . وبعدها ذهبوا لزيارة يا ميت . أفزعه منظر الدمار والتخريب المتعمد ، وروعة منظر الأرض السوداء المحترقة . وشعر بالغضب يتأجج فى صدره . ولما عرجوا على رفح وشاهد بعينيه السلك الشائك الذى يقسم البلدة إلى نصفين ،

وشاهد جنود العدو فوق البرج العالى وقد نصبت فوق أسواره المدافع الرشاشة . وهم يرتدون البنطلون « الشورت » ويحتسون علب البيرة الأمريكاني ، ويرقبون الأهالى الذين يحادث بعضهم بعضا عبر الأسلاك .. أشاح بوجهه ألما وتأسى على أرواح زملائه الذين ماتوا ومزقت أشلاؤهم من أجل استرداد هذه الأرض .

واصطدمت ساقه المصابة فى تلك اللحظة بأحد القناديل الميتة فأقشعر جسده . وتذكر مرة أخرى ذلك الفيلم الذى كان قد شاهده فى التليفزيون عن حادث انتحار مجموعة كبيرة من الحيتان خرجت باختيارها من البحر لتلقى حتفها على الشاطئ .

ترى هل كانت تعلن بذلك الفعل عن احتجاجها الأخرس على واقع فرض عليها .. واقع غاشم تأبى أن تتكيف معه أو تقبله ؟. ربما .. ربما . أنه لم يعد يدرى شيئا .

تطلع إلى صفحة السماء التى كانت تزداد حلكة مع اقتراب الفجر . كان يعرف من سابق خبرته أن تلك اللحظة هى التى تسبق انبثاق النور من قلب الظلام . كان يحاول أن يرقب مجئ هذه اللحظة حينما كان يتولى الحراسة فى نوبة « الشنجى » .

كانت الصحراء الشاسعة من حوله تبعث الرهبة فى دخيلته فى البداية ، لكنه حينما بدأ يألفها ، عشقها وأصبحت تدخل السكينة إلى نفسه .

كان يحلم وقتها وهو مفتوح العينين . كان يجتر أحلامه الكبيرة

عن حبيبته هند . ويستعيد ذكرياته معها ، ويرسم فى خيـاله أبعاد المستقبل الذى سيبنيانه معا . بعد أن تمضى أيام الحرب .. لكن بالضياع الآمال والأحلام .

ترى هل مازال فى العمر بقيـة لأية أوهام ؟. هل ضاعت الفرصة الأخيرة حقا من بين يديه إلى الأبد ؟. وأذن ما الذى ينبغى أن يفعله بحياته إذا كان الأمر كذلك ؟. هل ينتحر مثل الحيتان وقناديل البحر الخرسـاء ؟.

ما العمل ؟.

هذا هو السؤال الذى سيظل معلقاً لفترة لايدرى مداها ، حتى ينتهى تردده وتذبذب إرادته .

دار ببصره عبر غابة النخيل الشاهقة المنتصبة فى شموخ على طول الشاطئ الممتد عبر الأفق . وجر ساقيه للوراء واستند بكتفه على السياج الحجرى للشرفة ، وتطلع إلى قبة السماء الهائلة من فوقه . كانت الظلمة قد بدأت تتراجع وتشف ، وكان هناك بصيص من نور هو مزيج من الأزرق والفضى قد بدأ يعلن عن نفسه باستيحاء ولكن بإصرار لا يحيد .. لينبئ عن نهار - حتما - سوف يولد مع الفجر الجديد .

مجلة « إبداع »
سبتمبر ١٩٨٧

الصيدلية

أغلق الباب خلفه ، فأحس بدوى اصطفاقه وسط السكون السائد . واندفع خارجاً إلى الشارع المظلم . أحكم إغلاق معطفه على جسده وتوقف برهة على مبعدة من المنزل وصوت بكاء أبنته لايزال يرن فى مسمعه .

راح يجرى فى الطريق الذى لاتبدو لعينيه نهاية له ، وريح الشتاء العاصفة البليلة تصفعه على وجهه وتخترق عظامه فينكمش على نفسه . كان الصوت النحيل لايزال يضج فى داخله « بابا .. بابا .. آجى معاك يابابا .. أنت رايح فين » وتنطلق دفقات السعال من داخل صدرها الصغير فيخيل إليه إنها سوف تتحطم وتتناثر من عنف الألم .

واعتصر الحزن قلبه ومد يده - أثناء سيره - فى جيب منامته ، تحت المعطف ويحث عن علبة سجائره ، واكتشف لحسرته - أنه قد نسيها على المنضدة فى الصالة بينما كان يتعجل الخروج من البيت .

أسرع الخطى فى الشارع الترابى الموحش الذى لم تكن تضيؤه سوى فوانيس واهنة متباعدة تتخلق عنها ظلال وأشباه ظلال تضاعف من

حجم الهواجس التي تعتمل في نفسه . ترى هل يوفق في العثور على صيدلية الآن ؟. لابد أن يعثر على واحدة . ليس له خيار في ذلك ، وإلا فكيف سيتسنى له أن يعود إلى المنزل دون أن يحضر زجاجة الدواء المطلوب ؟.

كيف يستطيع أن يواجه امرأته ويصرح لها بفشله ؟. سوف تنهار وتصرخ في وجهه وتصاب بالهيستيريا قبل أن ينبلج الصبح . ثم من أين تواتيه الشجاعة على الصبر حتى حلول الصباح ، وهو يرى أبنته يكاد يسحقها الألم ولا يستطيع لها شيئاً ؟.

هل كان في استطاعته أن يتخيل - مجرد تخيل - أن الأمور سوف تنقلب هكذا بعد ما كانت تبدو مطمئنة ؟. وكانت البنت تنام لصقه وهي تتنفس بصعوبة ، وقد انخفضت حرارتها بتأثير الحقنة المسكنة التي اعطتها أياها الممرضة في الصيدلية . لم يكن نائماً وقتها .. كان مغمض العينين حقاً . لكنه لم يكن نائما . وكان يدرك تماماً أن امرأته مستيقظة أيضاً .. يحس بأنفاسها الحارة المتهدجة تلفحه .

حاول أن يسيطر على مسار تفكيره لكنه لم يفلح . كان كلما استعاد المشهد في ذهنه أحس بتجدد شعوره بالمهانة والصدمة ، وكلما حاول أن يرغم عقله على التوقف ، امعنت الصور في تتابعها المذل .

هل كان في استطاعته أن يتصور أن هذا قد يحدث له ، وأن تظل ابنته تذوى وتذوى أمام عينيه وتضمر ويجف عودها وينشف ببطء ، وهو يتأملها بعجز متزايد يوماً بعد يوم دون أن يصنع لها شيئاً ؟ .

ـ كفت حتى عن مجرد توصيله إلى الباب فى الصباح ، ولم تعد تقوى ى ترديد جملتها العذبة وهى تقف على حافة « البسطة » تلوح له :

« مع السلامة يابابا ياحبيبى .. ما تتأخرش » .

لم يكن من الممكن أن يقف مكتوف اليدين ، تاركا طفلته لسطوة لمرض وعذابه . مقامراً بحياتها الصغيرة فيفقدها عندئذ إلى الأبد . لجأ إلى كل وسيلة ممكنة .وأراق ماء وجهه حتى حصل على مبلغ ضئيل من المال كسلفة من رئيسه فى العمل . خرج بالطفلة من عيادة الطبيب إلى الصيدلية القريبة . كانت الروشتة فى يده ، والبنت ترقد على كتفه بلا حول ولا قوة . أمعن الصيدلى نظره فى الحروف المكتوبة وقال :

- الحقن دى موجودة ... مخفض للحرارة . والفيتامين موجود . لكن الدوا الأخرانى ده مفيش منه .

- يعنى ايه يا دكتور ؟.

- شاحح من السوق . موجود بداله مستورد .. غالى شوية لكن ممتاز .

بهت لارتفاع ثمنه ، وأحصى بعقله ما تبقى معه من نقود ، واكتشف أنه لم يعد يملك نصف ذلك المبلغ ، بعد ما دفع « الفيزيته » الغالية لطبيب الأطفال .

أومأ برأسه للصيدلى معتذراً واكتفى بشراء صنفى الدواء المصرى ، وعاد يجر قدميه إلى البيت . ولم يقو على مصارحة امرأته بما حدث . قال لنفسه مواسياً أنه سوف يحاول أن يطلب سلفة كبيرة من المصنع غدا

ويشترى لها الدواء ، وقد يدخلها إلى المصحة للعلاج . لكن امرأته قرأت كل شئ فى عينيه وحاصرته بعينيها دون أن تفوه بكلمة ، فتهاوى باكياً واعترف لها - والخزى يملوءه - بكل شئ .

حاول أن يستجدى النوم لكنه لشدة ارهاقه لم يفلح . هئ له فى تلك اللحظة أن امرأته تبكى فى صمت .. وشعر كأن الحمى تجتاح جسده كله . ولا يدرى كم من الوقت مـر .. حين بدأت البنت تهـذى ، ثم تكتسحها فجأة نوبة من السعال العنيف فتستيقظ مفزوعة وقد تندى جبينها بالعرق .

ضمها إلى صدره بقوة كأنما ليوقف ذلك السعال ويكبته . كادت البنت تختنق من قوة ضمتها إليه وأحس بحرارة جبهتها تلسع عنقه فأنتفض . شدتها أمها منه وجستها بكف يدها . واربد وجهها وراحت دموعها تنسال :

- البنت هتموت مننا . لازم تتصرف بسرعة . أنزل حالا . هات لها الدوا من أى مكان وبأى ثمن .

نظر فى ساعته . كانت قد جاوزت الأولى بعد منتصف الليل . اعتصر يديه حائرا . ونظر إلى أمرأته نظرة ذات مغزى . كانوا فى آخر أيام الشهر . ولم يكن ما يملكونه حتى أوائل الشهر يكفيهم . فهمت زوجته ما يعنيه . فتحت بعض الأدراج ، ثم أخرجت كيس نقودها وسحبت كل ما فيه ودفعته إليه :

- خد موش هنموت من الجوع .

وحينما استدار ليخرج تشبثت ابنته بعنقه فى وهن حطم قلبه - واندفعت تبكى وهى تغالب دفقات السعال المتلاحقة . انتزع نفسه منها بصعوبة ليفلت من الموقف الذى كان فوق طاقة احتماله .

انحدر مع الشارع الذى كان ينحنى على نفسه - بمحاذاة الترعة الممتدة بطول الطريق - ومد بصره عبر الجسر الخشبى الممتد فوق المياه وقلبه يخفق . لكنه اصطدم بالظلمة السائدة . كانت الصيدلية مغلقة . تسمر فى مكانه مقهوراً ، وأوشك أن يبكى من الاحباط والتعب . وأحس بدوار عنيف يشمله . ولم تقو ساقاه على حمله . وقبل أن يتهاوى على أرض الشارع « انتشلته يد أبيه النحيلة العظام فتماسك . كانت صورة أخته الصغيرة الملقاة على فراشها تبصق الدم من فمها تضغط على وعيه بقسوة ووحشية ، وكان معنى فشلهما فى الحصول على الدواء الآن ، وفى تلك اللحظة . هو موت البنت » .

استجمع أطراف عزيمته التى أوشكت أن تنهار مع أول فشل . وقرر أن يمشى ناحية المركز على مبعدة كيلو مترين . هناك صيدلية يعرفها ، وتفتح أبوابها حتى الصباح . إنها أمله المتبقى . أمله الأخير . وإلا فالأهون عليه أن يبيت ليلته فى الشارع ولا يدخل البيت دون الدواء .

سار بمحاذاة الترعة التى كانت قد بدأت تجف فى بعض المناطق . واستعاد إلى ذهنه منظر النسوة اللاتى يلمحهن فى الصباح الباكر وهو فى طريقه إلى المصنع يجلسن القرفصاء على حافة الترعة ، وقد كومن الأوانى والملابس على الأرض وانهمكن فى الغسيل على الشاطئ. بينما

يخوض أطفالهن الصغار فى الطين ويسبح الكبار منهم فى مياه الترعة الرمادية وهم عراة . وقفزت إلى ذهنه وجوههن وقد رآهن - منذ أسبوع فقط - يجلسن متشحات بالسواد على باب « المستوصف » فوق الأرض الترابية الرطبة ، على مقربة من المستنقع المحيط بالمبنى ، تطن فوقه أسراب من الهاموش والهوام ويسبح البط والأوز فوق مياهه الآسنة ، بينما تنبعث من المكان كله رائحة تزكم الأنوف .

كان يحمل ابنته على كتفه ، وزوجته تمشى بجواره تكاد تلتصق بكتفه ، يرتعد جسدها وهى ترقب الأطفال الذين تقرحت جفونهم من الرمد ، ومصت البلهارسيا والانكلستوما أجسادهم الهزيلة . دخل مع زوجته التى احتضنت البنت بحرص مذعور إلى حجرة «الطبيب الممارس» . نظر الرجل إلى الطفلة وفتح فمها ونظر إلى حلقها ثم خط - بشكل ميكانيكى - فى الورقة التى أمامه بضع كلمات وناولها للأم - ونظر إلى التومرجية العجوز بملل ظاهر وقال : - اللى بعده .

خرج من المستوصف بعد أن صرف زجاجتى دواء شرب من الصيدلية التابعة له وقد شمله إحساس غامر بخيبة الأمل فى شفاء ابنته عن طريق هذا العلاج الرخيص .

ومر أسبوع على تلك الزيارة دون أن يطرأ أى تحسن على صحة البنت ، فأيقن أنه سوف يخسر ابنته - كما خسر أخته الصغيرة من قبل - إن لم يتحرك على الفور .

نظر إلى ساعته ، وكانت تقترب من الثانية بعد منتصف الليل .

أخذ يسرع الخطى وهو يكاد يجرى حتى يلحق بالصيدلية قبل أن تغلق أبوابها . وتوقف برهة وهو يلهث . ومد بصره فلمح بداية سور مصنع الطوب .

كانت مداخنه مشرعة نحو السماء يتصاعد من فوهتها الواسعة دخان أسود كثيف يشكل غيمة ضبابية كبيرة فوق مساحة شاسعة من الأرض .. ونفذت إلى أنفه تلك الرائحة التى يميزها حسه جيداً . رائحة الهواء الفاسد المسموع الذى ينهل منه أثناء وجوده ، وانشغاله فى العمل داخل مبانى المصنع المغبرة .

توقف أمام البوابة الحديدية الضخمة قرب المدخل ولوح بقبضتيه متوعداً .

لو كانوا قد وافقوا على منحه القرض الذى طلبه منذ شهر لاستطاع أن يدخل ابنته الآن أحد المصحات ، لكنهم رفضوا طلبه :

- مدة خدمتك لاتسمح بمنحك القرض .
- لكن أنا بنتى هتموت .. لازم أعالجها .
- عندك المستوصف .. والمستشفى الميرى .
- مفيش فايدة .. يلزمنى فلوس بأى شكل .. أنا مدة خدمتى قربت على عشر سنين ومن حقى آخذ قرض .
- اللوائح بتقول غير كده .. وأحنا موش ملجأ خيرى .. عايز تستقيل اتفضل .. فى الحالة دى بس ممكن تحصل على مبلغ مكافأة إنهاء الخدمة .

توقف عند أحد القناطر الخشبية . واستند بمرفقيه على السور ، وقد تفاقم احساسه بالإعياء . وتمنى لو يدخن سيجارة . ولمحت عيناه جثة أحد الحيوانات تطفو فوق الماء وقد انبعثت منها رائحة تحلل وعفن .

عاود السير وهو يتذكر أنه في ذلك العام بالضبط كانت ابنته ستتم السن التى تدخل معها المدرسة . كل حوائجها كان قد اشتراها لها . المريلة الزرقاء والحذاء . والحقيبة والأقلام . كان يتطلع إلى هذا اليوم الذى يأخذ فيه بيدها ويوصلها إلى باب المدرسة . لكن المرض خيب ظنه وجاء العام الدراسى ليجدها طريحة الفراش .

رمى بصره على الطريق . كانت أنوار المركز تلوح من بعيد . ابتهل إلى الله فى تلك اللحظة ألا يخيب أمله « قال أبوه وهو يتهاوى على باب الصيدلية منهكا : أنا تعبت يا بنى .. موش حاقدر أرجع البيت ماشى على رجلى تانى .. نظر إلى وجه أبيه الذى غزته التجاعيد ، وأطل منه عذاب لا يوصف ، وأمسك نفسه عن البكاء بصعوبة » .

مرت فى جواره فجأه سيارة نقل مسرعة . لوح لها بيديه لكنها كانت قد عبرت دون أن يأبه له قائدها . لملم قواه أخذ يحث السير . وفكر فى أن ابنته ربما تكون قد نامت الآن بعد ما أرهقها البكاء لفراقه . لكنه كان يعرف أن نومها لا يمكن أن يطول فنوبات السعال لاتتركها طويلا ، ولابد أن يدخلها إلى المصحة فى حلوان . هناك تستطيع أن تجد العناية المركزة وتشفى ، لكن يجب أن يتحرك قبل فوات الأوان .

« كانت العنابر الطويلة تفوح منها رائحة المطهرات القوية ، قادته الممرضة إلى حجرة منفردة تغمرها الشمس ، أغلق الباب وراءه بهدوء . وتقدم نحو الفراش . كانت أخته ترقد هناك. وجهها في صفرة الليمون . حاولت أن تبتسم له فبدا عليها الإعياء .. كان أبوه يجلس على مقعد بجوارها وعيناه محمرتان من أثر السهاد والبكاء الذى لا ينقطع . جلس على طرف الفراش وأمسك بكفها النحيلة وقال :

- جرى إيه .. موش تشدى حيلك بقى وتخفى .

- موش باين أنى حاخف .. أو حاقوم تانى .. أنا عايزه أروح البيت . أرجوك خدنى معاك .. ما تسبنيش هنا .

- لازم تتمى علاجك الأول ، وتخفى . وبعدين آجى أخدك . خلاص هانت .

- أنا عارفة أنى موش حاخف أبداً . حاسة أنى هاموت .. أرجوك موش عاوزة أموت هنا لوحدى .. أموت فى البيت معاكم .

حاول أن يكتم دموعه ، ويتماسك . لكنه لمح والده فى تلك اللحظة وهو يشيح بوجهه بعيداً ويمسح الدموع التى فاضت من عينيه فى صمت فانهار ودفن وجهه فى صدر أخته الناشف الهزيل ليخفى بكائه .

أخذت الأنوار تتضح شيئا فشيئا . عاوده بعض الاطمئنان . ومد يده فى جيبه وتحسس الأوراق النقدية ليحصيها ويتأكد من وجودها . وتذكر وجه زوجته الملتاع وهى تأتيه بهذه النقود ..تجمعها من كل

الأدراج وتناولها له . لابد أنها تنتظره الآن والخوف يأكلها وينهشها ، وألم الانتظار يمضها وعذاب ابنتها يحز في نفسها . يجب أن يسرع الخطى . لابد أن يلحق بالصيدلية . أنها أمله الوحيد ومرفأه الأخير . ومطمحه . زجاجة الدواء المستورد الذى يمكنه وحده أن يوقف الألم ويجعل ابنته تنام مطمئنة ، وتعبر مرحلة الخطر ، وتهدأ وتنام وينام هو أيضا .. كم هو بحاجة إلى النوم .. النوم لفترة طويلة . ينام ويرتاح . كم هو يحن إلى الراحة ويمسك نفسه عن الانهيار بصعوبة .

ومد بصره على الطريق. لمح من بعيد أنوار الصيدلية تشع وتتوهج، لكنه لم يتمكن من التأكد من أنها فاتحة أبوابها بالفعل . جرى .. جرى بكل ما تبقى فى جسده المتعب من قوة . كانت ابنته تقف هناك على بسطة السلم تودعه .. عيناها المتألقتان بلمعان ببريق أخاذ . مرح وبرئ . « مع السلامة يابابا ياحبيبى » . وكانت زوجته تحدق بعينيها الذاهلتين فى وجهه وهى تمد إليه يدها بالنقود . وقالت اخته « مفيش فايدة .. خدونى معاكم . أنا هموت » . وتهادى أبوه على الأرض الترابية منهكا وقال : « أنا تعبت يابنى » . وظل يجرى والريح الشتوية تجمد وجهه وصوت ابنته لايزال يرن فى سمعه « آجى معاك يابابا . أنت رايح فين دلوقت » .

وتوقف مرة واحدة عن العدو وقد تملكه التعب ، وراح يلهث كفرس فى آخر خطوط السباق والعرق يتصبب من جبهته على أهدابه . وأبصر فى تلك اللحظة أضواء الصيدلية تشتعل وتضئ ماحولها . وتحقق

عندئذ من أنها لازالت تفتح أبوابها . تنفس بارتياح ودعك عينيه غير مصدق . وأسند ظهره فى إعياء إلى جدار أحد البيوت ، وقد أحس بساقيه تخذلانه ، ثم تهاوى جالساً على الأرض ، ودفن رأسه بين ركبتيه وانخرط فى البكاء .

مجلة « إبداع »
(فبراير ١٩٨٧)

أغنية للخريف

تلك كانت المرة الأولى - ولعلها - الأخيرة - التى يختار فيها هذا المكان الغريب للقائهما. ترى ما الذى اجتذبه إليه؟. لعله اسمه الأفرنجى ، ومظهره . وربما لأنهما كانا قد تعبا من المشى على غير هدى . بدالهما بشكله المتواضع . وكآبته . وعزلته الفريدة . وكأنه ماوجد هنا على جانب الطريق إلا ليستقبل من هم على شاكلتهما .

« كازينو .. وكافيتريا .. باليرا » .

تناهى إلى سمعه صوت أنغام موسيقى أوروبية خفيفة تنبعث من مكان ما .. أطل برأسه من الباب القصير الذى يشبه أبواب البارات ، وألقى بنظرة متفحصة على المكان شبه المعتم . لم يكن هناك بالصالة الواسعة التى تناثرت على جانبيها غرف صغيرة ، سوى رجل عجوز يجلس تحت نافذة تسقط منها حزمة واهنة من أشعة الشمس فوق جسده المنكمش . وكانت هناك بضع مناضد مركونة على مسافات متباعدة لصق الحوائط المكسوة بورق حائط قديم لاتكاد تتبين لونه .

جذبها من يدها ودفع الباب ، الذى صر صريراً أيقظ الرجل من

غفوته . تقدما نحوه بوجل .. وسألت هى بتوجس :

- ممكن نقعد هنا .

افتر ثغر العجوز عن ابتسامة بشوشة ، ولمعت عيناه - فى وجهه المليئ بالتجاعيد ببريق يكشف عن بقايا حيوية وقال بلكنة أفصحت عن يونانيته :

- أهلا وسهلا .. اتفضلوا .

أومأ برأسه للرجل في امتنان، وتلفت حوله يبحث عن مكان ملائم . كانت هناك منضدة على اليمين - على مبعدة ثلاثة أمتار من مكان الرجل - تحت نافذة منخفضة تطل على أرض فضاء .

جلست قبالته معطية ظهرها للعجوز الذى انهمك فى حشوه غليونه ، وركنت شنطتها فوق المنضدة المكسوة بمفرش أحمر من التيل الرخيص .

قال الرجل العجوز بلهجة معتذرة :

- متأسف جداً . لأن الجرسون موش هنا . لسه ما جاش . المحل بيشتغل بالليل . لكن أنا تحت أمركم .

همست له :

- أنا جعانة أوى .

● قال بنبرة خجلة :

- فيه عندكم سندوتشات ؟.

● هز الرجل رأسه بالإيجاب .

- وعصير برتقال ؟

● أومأ الرجل برأسه .

- طيب ممكن ..

● وسكت .

ابتسم العجوز بفهم . ونهض متكئا على حافة المنضدة ، وسار باتجاه البوفيه وهو يظلع فى مشيته .

نظرت فى ساعتها وقالت : ياه أوام بقت أربعة ونص .

- ماحسيناش بالوقت .

● مالت بجذعها على حافة المنضدة وقالت بإعياء :

- أنا تعبت أوى ؟ مشينا كثير .. موش كده . ؟

أومأ برأسه وهو يتطلع إلى وجهها الخمرى المتورد ، وعيناها اللوزيتين . وتوقفت عينه برهة عند ذقنها المستدقة وفمها المليئ .. وقال وهو يبتسم فى حزن :

- حتوحشينى أوى .

أغمضت عينيها ، وغطتها بكفيها .. وأخذت تتنفس بصعوبة . نظر عبر النافذة المواجهة التى تسقط منها الشمس ، إلى بلكونة المنزل المقابل . شدت بصره تلك السيدة الشقراء التى انهمكت فى نشر غسيلها على الحبال ، وقد ارتدت قميصاً خفيفاً يبرز صدرها الناصع . كانت شمس أواخر أكتوبر تغمرها بفيض من الألوان المرحة ، وكان منظرها يوحى بالبهجة . وتذكر فى تلك اللحظة ، أول مرة تعرف فيها على « هند » ، ظهر يوم من أيام الشتاء . وهى تنشر غسيلهم فى شرفة البيت المواجة لغرفته على السطح .

كان يشغل الحجرة منذ أكثر من أربع سنوات ، ورغم ذلك لم يلتفت

إليها ، ولم تجذب انتباهه إلا ذلك اليوم . كانت تضع المشابك فى فمها ، وتميل بجذعها على حبال البلكونة المشدودة وتفرد الغسيل ثم تثبته بالمشبك في سرعة ورشاقة ،وقد قطبت حاجبيها وبدا عليها الجد .

راح ينظر إليها باستغراق ، متأملا انهماكها الحميم فى العمل . وفجأة لمحها ترفع وجهها وتنظر إليه نظرة مباشرة صريحة وتبتسم فى تهكم قائلة :

- إزاى الصحة .

ارتبك من المباغتة غير المتوقعة ، وانتابه الخجل ، فأوما لها برأسه معتذراً ثم انسحب إلى غرفته ، وقد أنبأه حدسه بأن تلك الفتاة سوف تلعب دوراً ما فى حياته .

تنبه على وقع خطى صاحب المحل وقد أقبل يحمل صينية رصت عليها السندويتشات وكأسان من عصير البرتقال . وضعها فوق المنضدة بلطف وأومأ برأسه ثم انسحب .

أزاحت شنطتها المفتوحة بجانب الحائط ،فلمح « الباسبور » بجلدته الخضراء . مد يده باستخفاف وتناوله ، ثم أخذ يتصفحه . وتوقف برهة عند صورتها الملصقة فى أول صفحة وأمعن بصره .. كانت ترتسم على ملامحها تعبيرات صارمة تشى بالكآبة . قالت متسائلة : الصورة دى وحشة .. موش كده ؟

هز رأسه نفيا وسألها :

- آماله فين التذاكر ؟

- معـاه .

سكت ، وتحاشى أن ينظر إليها . ودفع بيده زجاج النافذة المجاورة له ، وطفق ينظر إلى الأرض الفضاء فى أسفل . كان هناك على البعد سور طويل من القرميد يشبه سور المدارس ، يلاصقه كوخ خشبى . وكانت أوزة وحيدة تنقب فى أكوام القمامة بحثا عن طعام .

تطلع إلى السماء التى غامت فجأة ، ثم شرعت تمطر رذاذا خفيفاً ، تصحبه ريح هينة فيها لسعة من البرد . أدرك أن الشتاء سوف يأتى مبكراً هذا العام ، ولفت نظره منظر السيدة صاحبة الغسيل وقد هرعت لتغطى غسيلها بمشمع من البلاستيك الزاهى . وانتبه إلى يد رفيقته وهى تتسلل وجلة لتمسك بيده فى حذر .. نظر إليها وابتسم فى شرود . قالت : وصلت لغاية فين .

- لغاية اسكندرية .

- اشمعنى .

- افتكرت أيام ما كنت فى البحرية من سنتين .. فاكرة ياهند ؟

هزت رأسها بالإيجاب .

- كنت باقعد على البحر . فى أيام الشتاء . وأفكر فيكى . كنت بتوحشينى أوى .

- وأنا كنت باكتب لك كل يوم تقريباً .. فاكر .

هز رأسه موافقا وقال بأسى :

- ياترى حتبقى تكتبى لى تانى بعد ماتسافرى ؟

- طبعاً . قالتها بنبرة واثقة .

ومدت له يدها بكوب العصير ، فتناوله ورشف منه رشفة صغيرة ثم

نحاه جانباً . وتوقفت الموسيقى الخفيفة مرة واحدة عن العزف . وساد صمت قلق .حبس أنفاسه وأرهف سمعه ، فتناهى إليه بعد لحظات صوت المذيعة المألوف « نستمع الآن من أعمال ريمسكى كورساكوف إلى «النزوات الأسبانية » يعزفها لنا أوركسترا فيينا الفيلهارمونى بقيادة هربرت فون كارايان .

وعاد الصمت من جديد ، ثم تدفقت الموسيقى المرحة بحيوية . ابتسم . وابتسمت هى لابتسامته ، وأشرقت الشمس مرة أخرى .. ولمح الأوزة فى تلك اللحظة وهى تقفز فاردة جناحيها ، ثم أبصر من النافذة المواجهة السيدة صاحبة الغسيل وهى ترفع المشمع عن الحبال .. قال وقد انتابته نوبة مرح مفاجئة :

- تسمحى لى بالرقصة دى ؟

- « أفيك بليزير » . ومدت له يدها برشاقة ، فتناولها فى كفه ، ثم مال عليها ولمسها بحنو .. قالت بدلال : اسمها إية الرقصة دى .

قال وقد عاودته الكآبة : رقصة الوداع . ثم ترك يدها تسقط فوق المنضدة .

لاحظ نظرة الحزن التى غشيت وجهها ، فحول وجهه نحو النافذة ليتحاشاها . قال لنفسه أنه ينبغى عليه الآن أن يكف عن مواصلة خداعه لنفسه .. لقد كان يعلم تماماً أن تلك اللحظة سوف تأتى إن عاجلا أو آجلا .. منذ أن تم عقد قرانها فى العام الماضى على ذلك القريب الثرى الذى يعمل فى بلاد البترول .. لم يكن يملك وقتها فرصة أن

يعرض نفسه عليها كبديل .. وهل كانت سترضى بالحياة معه بمرتبه الضئيل .. وبالحجرة الوحيدة فوق السطح .. وهل كان أهلها سيقبلون ؟. لم يقبل وقتها أن يمتهن نفسه إلى هذا الحد بتعريضها لهذا الاختبار القاسي .

لماذا إذن استمر على علاقته بها ؟. لماذا واصلا معا خداعهما لنفسيهما ؟ لقد كان يحلم دائما بمجيء هذه اللحظة ، ويتصورها والألم يسحقه . لكنه كان يتناساها حتى تغيب عن باله فى غمرة فرحه بلقائها .. كان كالمحكوم عليه بالإعدام .. يدرك حتمية موته ، لكنه لطول فترة التأجيل ، ينتابه الهلع والجنون لحظة صدور قرار التنفيذ .

وأحس فى تلك اللحظة بأن عيناه سوف تخونه وتفضحه وتفصح عن ضعفه . جال ببصره عبر الأرض الفضاء ثم توقف عند سور المدرسة .. ولا يدرى ما الذى ذكره حينئذ بأيام صباه فى المدرسة الابتدائية ، حينما كان المدرسون يضطهدونه دائما ويرغمونه على الجلوس فى آخر الصف .. بينما يدللون أولاد البهوات الذين يحضرون دائماً فى مجلس الآباء .

كان هؤلاء الأولاد بثيابهم الأنيقة ، وحقائبهم الجلدية الغالية يثيرون حقده .. وكان يعزى نفسه غالباً بأنه أشطر منهم . لكنه كان يكتشف فى نهاية العام أنهم قد حصلوا أيضا على أفضل الدرجات وأتى هو كالعادة فى ذيل القائمة .

وابتسم ساخراً من نفسه فى مرارة والتفت ينظر إليها فلمح دموعها تنساب على خدها فى صمت .. اعتصر الحزن قلبه ، ومد يده فى جيبه

لاشعوريا وتناول منديله وراح يمسح دموعها وقال وهو يربت على خدها بأبوة :

- تعرفى أنا لاحظت حاجة مدهشة من مدة قريبة .

نظرت إليه مستفهمة قال :

- لاحظت أن الأغنيا دايما بياخدوا كل حاجة حلوة ، ومتميزة بفلوسهم . وده شئ مفهوم . ولما يعجزوا عن شرائها بينتزعوها بأى وسيلة .. إنما المدهش هو أن الناس الغلابة هما اللى دايما يعرضوا عليهم بضاعتهم ، ويزوقوها لهم علشان عارفين أن معاهم الثمن .. معاهم الفلوس .

لمح نظرة عتاب صريحة فى عينيها .. قال بنبرة مستفزة :

- تفتكرى أنى كان ممكن اتجوزك ؟

- ليه لأ .. أنت ماحاولتش .

- لأنى باحترم نفسى .

- رغم أنك عارف شعورى .

- وايه أهمية المشاعر فى صفقات الجواز .

- لا أنت قاسى جدا .

- أبدا .. أنا واقعى .

غطت وجهها بكفيها مرة أخرى ، وراحت تنهنه فى صمت . أخذ ينظر إلى صفحة السماء التى بدأت تغيم وتعتم تدريجيا ، مع انسحاب الشمس وأفولها . ولمح الرذاذ الناعم يعاود السقوط ، ثم لم يلبث أن أبصر بالسيدة تخرج مكفهرة ضائقة لتمديدها إلى الخارج تتحسس المطر ثم تنظر إلى السماء بلا مبالاة وتنسحب إلى الداخل .

واخترق سمعه لحظتها صوت آذان المغرب ، يأتى من ميكروفون أحد المساجد القريبة ، فتذكر فجأة وجه أبيه المتغضن الوقور . وقد بدا له من خلف زجاج نافذة القطار . كان يقف فى المحطة لوداعه ، لما جاء لزيارته فى المرة الأخيرة أوائل العام الماضى .

كان زجاج النافذة التى جلس أبوه خلفها مغلقاً بالرتاج . ولم يفلح الأب رغم محاولاته اليائسة فى فتحه . فألصق وجهه بالزجاج البارد ، وراح يحدثه . أخذ يراقب شفتيه دون أن يسمعه ، وسط ضجيج المحطة ؛ ولمح عينا أبيه الكليلتين تغرورقان والآسى يغمرهما ، بينما القطار يغادر الرصيف ببطء ، وهتف به هاتف خفى فى تلك اللحظة بأنه لن يرى أباه بعد الآن . لوح له بيده فى تخاذل ، وتمتم « مع السلامة » ثم عاد يجر قدميه منقبض الصدر .

أضاء الرجل العجوز النجفة الكبيرة التى تتوسط الصالة ، فتوهج المكان .. وبدأ بعض الرواد يقبلون . قال لنفسه أن ينبغى أن يقوم الآن فلا معنى لاستمرار هذا الموقف . صفق بيديه للخواجة ، فرفعت وجهها لحظتئذ وقالت :

- خلاص حنمشى .

- أومأ برأسه .

ودفع الحساب للرجل الذى ابتسم لهما مودعاً . وخرج فى أثرها .

توقفا بالقرب من محطة الأوتوبيس .. وأحس بغتة بيدها تتعلق بمرفقه . وتتشبث به بعصبية . ثم سمعها تهتف به :

- لو قلت لى ما تسافريش الليلة .. أنا موش حسافر .

هز رأسه فى إباء ، ونزع يده من يدها ، واستوقف تاكسياً كان ينزل راكباً ودفعها برفق لتركب ثم أغلق الباب وراءها . قالت وهى تطل من نافذة السيارة :

- موش جاى معايا .

- أجاب باقتضاب :

- لاموش طريقى .

ثم لوح لها وهى تمضى ، وصار مطأطئ الرأس وهو يصفر بشفتيه لحنا حزينا . ونظر إلى السماء التى اكفهرت وصارت فى لون الرصاص ، ثم شقها فجأة برق عاصف بعد أن كف الرذاذ وانقطع .. وأحس إحساساً لا يخيب . بأنها سوف تمطر الآن بغزارة .

مجلة « العربى » الكويتية

مايو ١٩٨٦

لو يسقط المطر

« لو أنها تمطر الآن » . قلت لنفسى وأنا اتطلع من فوق الجسر العالى فى الميدان ، إلى صفحة السماء الرمادية التى بدت مصمتة ، مسدودة . وهى تحجب وجه الشمس ، بينما كانت الحرارة اللاهبة والهواء الراكد المختلط بدخان السيارات يكاد يصيبنى بالدوار .

« ياللزحام المخيف » .مئات من رؤس البشر تنبثق فوق أرض الشارع ، كأنها سنابل ضخمة مستديرة تنبت من حقول من الأسفلت ، تندفع متكتلة فى كل المسارب ، كتيار جارف تحركه قوى غامضة . ومن هنا من فوق الجسر كانت زحمة الناس تدفعنى رغما عنى مع التيار ، ولم يكن لدى لحظتها وقت للتأمل .

كانت المواصلات متوقفة تماماً ، وكانت السيارات الخاصة وعربات الأجرة ، تقف متسمرة بلا حراك عند مدخل شارع « قصر العينى » وقد التحمت ببعضها فى كتلة واحدة شلها الخوف ، وهى تستشعر - بالغريزة - بوادر خطر محدق .

وسرت إشاعة بأن هناك مظاهرة للطلبة أو العمال . لكننى لم أتأكد

إلا حين صك سمعي فجأة صوت الفرقعة المكتومة . ولمحت من مكاني المرتفع ، عساكر البوليس وقد انتظموا في صفوف وراء المتاريس الحديدية التي أقاموها على عجل . بينما تصاعدت من بعيد سحب الدخان الأسود واختلطت بالهواء الراكد والغبار والحرارة والزحام ، فأحسست لحظتها بأنني أختنق .

كنت متعبا . مرهقا لحد الإعياء ، بعد أن تحملت عناء السفر من الإسماعيلية للقاهرة واقفا على قدمي وسط زحام الجنود العائدين ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها وجه المدينة المتجهم الكئيب ، بعد ثلاثة أشهر قضيتها « هناك » .

وكان ذلك الوجه ، هونفسه الذي ودعتني به أيضا وقت رحيلي . قالت « ن » بلهجة تشوبها السخرية وهي تستند على كتفي بعد إجراء « العملية » وبعد أن أفاقت من تأثير « البنج » بينما نحن ننزل معا سلم البيت القديم ، إنها سوف تبتعد عن طريقي نهائياً ، وأنها سوف تسافر مع أختها إلى « الكويت » حيث تبحث لها هناك عن عريس غني من امراء النفط .

حاولت أن أتماسك وأرد عليها بشكل أكثر سخرية لأخفف من حدة الموقف ، لكن صوتي احتبس في حلقي ، ولاحظت هي أنني على حافة البكاء ، فضمتني إلى صدرها بحنان رغم إعيائها .

قلت لنفسي ، أنه مادامت هناك استحالة في عبور «شارع قصر العيني» الآن ، ومادامت المواصلات مقطوعة بيني وبين مسكني في «الجيزة »

فيتعين علىّ ، على الأقل أن أبحث لنفسى عن مكان آمن أريح فيه جسدى وبعدها أفكر فى البحث عن مخرج من هذا المأزق .

واستقر بى المقام على المقهى « الأفرنجى » الذى اعتدت الجلوس فيه . ولا أدرى على وجه التحديد ما الذى جعلنى أتذكر مرة أخرى منظر الجثة الممزقة التى لمحتها من شباك الأتوبيس قرب هويس بلبيس حيث توقفنا برهة .

أشار واحد من زملائى الجنود بأصبعه إلى كتلة محتقنة اللون ، كان التيار يحملها وصاح « غريق » . فهرعت من السيارة إلى الرصيف وحدقت ببصرى لحظة أن مرت من أمامى تلك الكتلة ، فلمحت جثة مقلوبة على بطنها ، منتفخة ومتقوسة وفى مكان القلب بالضبط ، كانت هناك فجوة عميقة مسودة الحواف من أثر طلق نارى .

كان سكان البلدة يرونها تمر من أمام أعينهم كأنها شئ عادى . وكان جمع النسوة اللاتى يغسلن حاجياتهن على الشاطئ يرقبنها بلا مبالاه ، ويشحن بوجوههن بعيداً ، ولم أر أحدا من سكان البلدة كلها يتقدم لانتشالها أو حتى يتطوع لإبلاغ السلطات عنها . وكانت الجثة تتقدم عبر النهر ، يحملها التيار لتصطدم فى النهاية بالهويس المغلق .

لكننى لمحت فوراً ثلاثة من الرجال الأشداء يصعدون فوق الكوبرى ويفتحون الهويس لكى تمر الجثة . قال واحد من زملائى الجنود ، وكان رجلا ريفياً ليزيل عنى الدهشة التى اعترتنى « أنهم يدفعون عن أنفسهم التهمة .. فليس من صالحهم بقاؤها هنا أو الإبلاغ عنها .. ربما كانت هذه الجثة قادمة من الصعيد » .

وعلق واحد من زملائنا المثقفين بلهجة ذات مغزى :

- كل الأنهار تصب في البحر .

كان الليل قد أوشك أن يحل ، وبدأ وجه الدنيا يشحب ببطء ، بينما أخذ صوت الانفجارات والفرقعة يعلو ويتضح . ثم سكتت بعد ذلك تماماً . ومن آن لآخر كنت ألمح شراذم قليلة من الناس تنسحب وتتراجع بهلع نحو ميدان « سليمان باشا » الذى اقفر تقريباً وخيم عليه هدوء مريب ، ثم تتشتت في الشوارع الجانبية المتفرعة منه ، وكان المقهى كما هي العادة عامراً بالوجوه القديمة ، وأيضا بالوجوه المريبة التى تشكل جزءاً من طابعه . وقد تجمعوا في وحدات صغيرة على الموائد المستديرة في جوار الأركان ، ودار الهمس الجبان ، والفحيح الذى يعلو من آن لآخر .. والمناقشات التحليلية التى راحت تستنبط أبعاد الموقف واحتمالاته .

وكنت أجلس وحيداً على مقعدى في ركن منزو ، أرقب الليل الذى يهبط على المدينة التى صهرتها حرارة الصيف ولفها دخان التظاهرات ، وأتأمل في أعجاب وجه المضيفة الحسناء الذى ارتسم على الواجهة الزجاجية الكبيرة لشركة « آير فرانس » .

لم أكن متعجلاً القيام والرحيل . لأننى لم أحاول خداع نفسى بأية أوهام كاذبة . كنت أعرف جيداً أن الوحشة والفراغ والوحدة تنتظرنى هناك . وكنت قد وطنت نفسى منذ الآن على الحرمان لأمد طويل من ذلك الوجه الأليف الذى كان عزائى الوحيد .

ودت « ن » لو تحتفظ بجنينها ، بل أنها تشبثت حتى آخر لحظة بمطلبها ، ولكن كل الظروف تحالفت ضدنا ، ولم أكن أملك وقتها أى شئ حيالها . كنت مشلولا تماماً وعاجزاً عن الفعل ، وكانت الفرحة الممزوجة برعب لانهائى تنتابنى وأنا أتأمل البطن البارز قليلا الذى يحمل ثمرة حب قدر له أن يجهض .

طفح وجهها بالخوف والهزيمة ، حينما أدركت عجزى عن الوقوف بجانبها . ولم تفلح كل وعودى أو عباراتى المنمقة عن الانتظار والمحاولة والأمل فى اقناعها ، حيث كان كل يوم ينقضى يقربها من قدرها .

قال لى الطبيب الذى أجرى العملية :

- لقد كانت حاملا فى شهرين .

هززت رأسى دون أن أنطق بينما كان عيناى تستقران على جسد « ن » الممدد كجثة على طاولة العمليات ووجهها المسبل العينين الذى علته صفرة وشحوب شديد جعل جسدى كله يتفصد بالعرق .

- سوف تفيق حالاً .

قال الرجل وهو يدفع أمام عينى بوعاء من الزجاج ، أبصرت فى داخله بكتلة هلامية حمراء من اللحم ، فأغمضت لا إراديا وارتعشت . ابتسم الرجل وهو يرانى أقبع عند رأس « ن » وأتأملها فى شفقة وهلع وقال :

- لا تخف . اطمئن . العملية نظيفة تماماً . سوف تفيق حالا .

لكزنى عامل المقهى فى كتفى برفق وقال أنهم سوف يغلقون الآن .. ففهمت أن «الخواجة» صاحب المحل لا يود أن يقع تحت طائلة المسئولية . أومأت للرجل فى استسلام ثم دفعت حسابى وخرجت إلى الشارع .

كانت الأحوال قد هدأت تقريباً .. وانقطع صوت الانفجارات ، وبدأت المواصلات تسلك سبلها من جديد . كانت المظاهرات قد انتهت فيما يبدو وتم قمع « الفوضويين والمخربين » ، وكنت استطيع أن أعود إلى منزلى دونما عائق .

كنت أعرف أننى لن أجد أحداً فى انتظارى ، وأن « ن » قد رحلت نهائياً ، لأنها لم ترسل إلى بخطاب واحد اثناء غيبتى . كنت قد وعدتها بأننى سوف أحسم الأمر ، لكنها لم تقبل أن تخدع مرة أخرى .

تطلعت إلى السماء المظلمة المسدودة التى انبعث منها وهج أحمر ، ومسحت العرق اللزج الذى تفصد على وجهى وأنا أشعر بضيق شديد فى صدرى .. واختناق وكأننى اتنفس هواءاً مسموماً . كان الجو ملائما للانتحار . وتمنيت لحظتها لو يسقط المطر ، أو تهب العواصف . وبينما كنت أعبر الميدان الذى استقرت فيه الحركة والنظام من جديد ، تذكرت جثة القتيل ، وفكرت فى أنها ربما كانت الآن فى طريقها إلى البحر .

مجلة « إبداع »
يناير ١٩٨٨

وللكـآبة وقـت

- ١ -

فى نهاية الأمر ، قلت لنفسى مستسلماً أن الوقت - بالنسبة لى - قد أصبح ملائماً تماماً للانتحار . ولم يبق سوى اختيار الوسيلة . وتناهى إلى صوت رنين ساعة الجامعة فى البعيد ، فقدرت أنها الواحدة صباحاً . وكان مطر خفيف يتساقط فوق هامات الأشجار المتناثرة عبر الشوارع المغسولة التى تعبق برائحة تثير فى نفسى أشجانا قديمة .

تطلعت إلى تمثال نهضة مصر المغتسل بالرذاذ ، وهو يلتمع تحت أضواء الميدان الفوسفورية ، قبالة حديقة الحيوان الغارقة فى الصمت . وقررت أن أعبر كوبرى الجامعة سيراً على قدمى ، فربما عثرت على سيارة أجرة ، يقبل سائقها أن يتوقف ، ويحملنى إلى منزلى فى حوارى درب سعادة .

واجهتنى تلك الصورة الكبيرة فى مدخل الكوبرى ، فضاعفت من كآبتى . كانت صورة ضخمة « بورتريه » بالألوان الطبيعية ، وقد ارتدى صاحبها ملابسه العسكرية محملا بالنياشين والرتب والقلائد

المعدنية . وتحتها كتب بخط النسخ الأسود الواضح . « مصر أولاً » . أخذت نفساً أخيراً من سيجارتي التي أصابها البلل ، ثم قذفت بها إلى بركة المياه التي تجمعت تحت الصورة .

استجمعت قواي ، ورحت أعبر الكوبري تحت وطأة نظرات الجنود المسلحين قرب سور الكوبري . ولم تواتني الشجاعة لأرفع رأسي كالمعتاد ، ملقياً بنظرة ساخطة على العلم الذي كنت أعرف أنه هناك فوق البناية العالية ، يرفرف فوق سماء القاهرة المكفهرة .

وعند منتصف الكوبري توقفت التقط أنفاسي . وحاولت أن أشعل سيجارة أخرى غير أنني لم أتمكن . ملت على السور الحديدي البارد . وأطللت على صفحة النيل التي كانت تنعكس فوقها أضواء خافتة تصدر من العوامات والملاهي الليلية التي غرست على ضفتيه .

فكرت أنه سيكون انتحاراً سهلا وسريعاً ، لو أنني قفزت الآن من فوق الجسر ، وغبت على الفور في أعماق النهر . غير أن جسدي اقشعر لا إرادياً لما تخيلت برودة المياه في تلك الساعة من الليل . ومنظر الجثة المنتفخة - جثتي - حين يخرجونها بعد أن تطفو وقلت لنفسي ساخرا : إن انتحاري من هنا . وفي تلك الأونة بالذات ، ربما يكتسب دلالة سياسية ذات طبيعة انهزامية ، وهو ما لم يرد بخاطري إطلاقاً ، فكل ما أوده أن أنتحر في هدوء ، ودون أن أزعج أحدا . وهكذا واصلت سيري حثيثا ، وقد استقر عزمي على الطريقة الوحيدة التي فكرت فيها زمنا طويلا .

- ٢ -

عند مدخل شارع قصر العينى ، حاولت أن استوقف واحدة من تلك السيارات التى كانت تمرق من أمامى . غير أننى لم أفلح . كنا فى رأس السنة . وكانت السيارات الخاصة مشحونة بأصحابها المبتهجين ، وسيارات الأجرة الخالية صارت شحيحة . ورحت أغذ السير وأبخرة الكحول المتصاعدة إلى رأسى تصيبنى بدوار لطيف ، ينسينى تعبى . إلى أن وجدت نفسى فى ميدان التحرير .

كان الميدان خالياً إلا من العربات المصفحة التى تنأثرت فى جنباته ، وحواليها وقف جنود الأمن المركزى شاحبى الوجوه ، يغالبون البرد . ولدهشتى لمحت نافورة المياه التى تتوسط الميدان وهى تعمل ، فعهدى بها متوقفة صدئة طوال الصيف .

جلست فوق أحد المقاعد الحجرية استجمع قواى ، وأغالب الخدر الذى بدأ يلفنى ويثقل جفونى . ولم أكن أشعر بالبرد فقد كانت الكمية التى تجرعتها من الخمر كبيرة . إذ كنت قد تعمدت فى هذه الليلة بالذات أن أستسلم للمرة الأولى فى حياتى . ورغم ذلك - ربما بسبب يقظتى العقلية وانفعالى - لم يظهر تأثير ما تناولته فى هذه السهرة إلا حينما خرجت للشارع .

قال أمجد وهو يحاول انتزاع الكأس من يدى :

- كفى . ستقتل نفسك .

قلت ساخراً :

- هذا هو بالضبط ما أريده .

وحين كانت الساعة تدق معلنة بداية العام الجديد قلت للأصدقاء وأنا أفرغ فى جوفى ما تبقى من زجاجة الخمر : - عام سعيد .. وعمر مديد .

وقمت فقبلتهما الواحد تلو الآخر . جذبنى سمير من ذراعى واجلسنى بجواره وقال :

- أنت باين عليك تعبان الليلة . ليست عادتك . أكيد مخبى عننا حاجة .

قلت وأنا أكتم الضحك المرير فى داخلى :

- تصوروا . زوجتى ستتزوج . شهور العدة خلصت .

قال سمير مازحا :

- يعنى انضميت رسمى لنقابة العزاب .

قلت :

- المشكلة فى البنت . ألم أقل لكم إنها ستدخل المدرسة فى العام القادم .

أحاطنى أمجد بذراعيه وقال مواسياً :

- لا تحمل هما .

وقال سمير :

- الآن تستطيع أن تحضر حقيبتك وتأتى للإقامة معى دون مشاكل .

- باكر أكون عندك . لكن المشكلة فى البنت .

- أرسلها لأمها يا أخى .

- ضعها أمام الأمر الواقع .

جلست صامتاً برهة وأنا أفكر فى أنها هى التى وضعتنى فعلا أمام الأمر الواقع وحاصرتنى فى ركن ضيق مكبلاً بالأغلال . ونهضت مستأذنا فى الانصراف . فقال سمير :

- لا داعى لخروجك الآن . نم هنا الليلة . لن يسأل عنك أحد لو غبت . هززت رأسى موافقا على جملته الأخيرة وقلت : - أود أن أمشى قليلا بمفردى .

- انتظر سنأتى معك .

- حالتى ليست بهذه الدرجة من السوء يارفاق .

وصافحتهما على باب الشارع ، فعانقانى بحرارة ، وكأنهما يشعران بأنى أوشك أن أودعهما وداعاً أخيراً . وسرت وحدى وهواء الليل يلسع وجهى متجها إلى حيث لا ينتظرنى أحد .

كان أبى رجلا عجوزاً يقضى أيامه الأخيرة طريح الفراش ، بعد أن خرج على المعاش منذ أكثر من عشر سنوات ، وكفت أمى عن انتظارى فى ليالى الشتاء الباردة ، لكثرة مبيتى فى الخارج ، كما أن صحتها - على حد قولها - لم تعد تحتمل . من إذن سينتظرنى أو يسأل عنى ؟

فكرت فى أن سارة ربما انتظرتنى كما اعتادت مؤخراً ، لكننى قدرت أنها ربما نامت فى حضن جدتها ، بعد أن يئست من مجيئى . لم يعد لى من ملجأ إلا مع هذين الصديقين نجتر همومنا معا ، ونبحث عن العزاء فى الشراب ، وقد كففنا عن الأحلام منذ زمن طويل .

كنا قد ارتبطنا معاً منذ ما يقرب من عقدين من الزمان . كان أمجد الذى يعمل مدرساً للرسم أقربهما إلى نفسى ، فقد كان زميلى فى الدراسة وفى العمل . وقد أصيب بالسكر عقب خروجه من المعتقل حيث قضى فيه عامين ، وبدأ يهرم سريعاً ، ولم يكن قد تزوج . فاته قطار الزواج الذى لم يكن يهتم باللحاق به على حد تعبيره . وأصبح يعيش مع أخته المطلقة ترعاه ويرعاها .

أما سمير ، وهو صاحب الشقة التى نسهر فيها ، فقد اختار العزوبية بمحض إرادته . وكانت له صلاته النسائية التى تغنيه عن ارتباطات الزواج المعقدة كما يقول . كنت قد عرفته أثناء قضائى فترة الخدمة العسكرية . خضنا حرب أكتوبر « المجيدة » معاً ، وكنت أحد ملازميه فى كتيبة المدفعية الملحقة بالمظلات ، فقد كان ضابطاً عاملاً برتبة « المقدم » . غير أنهم أحالوه إلى « الاستيداع » منذ بضعة أعوام للاشتباه فى أن له نشاطاً سياسياً معارضاً .

- ٣ -

أشعلت آخر سيجارة فى علبتى ، وفكرت فى أننى سوف أجد صعوبة الآن ، فى العثور على أى محل اشترى منه علبة أخرى ، فى هذا الوقت المتأخر ، وقلت لنفسى : أننى يجب أن أنهض حالاً حتى لا يثير جلوسى هنا لمدة طويلة اشتباه رجال الأمن الذين يروحون ويغدون أمامى .

وبعضهم يحدجنى بنظرات نافذة ، وساورنى الخوف من حدوث ما لا تحمد عقباه . فقد يحرر لى أحدهم محضر سكر فى الطريق العام فأبيت ليلتى بأحد أقسام البوليس . فأنا سيئ الحظ منذ مولدى . أصادف المتاعب دوماً ، وقد ولّد ذلك لدى إحساسا متغلغلا بالدونية وشعوراً مترسخاً بالاضطهاد .

ففى طفولتى كنت أتعرض للضرب من المدرسين فى المدرسة ، ربما لشكلى المزرى وملابسى الرثة ، وكنت أبول على نفسى وأنا جالس فى الفصل الرطب ، وقد أشتد خوفى من أرفع يدى مستأذنا المعلم فى الذهاب لدورة المياه . وكان أبى يضربنى بقسوة وبلا مبرر ، ربما تفريغاً لكبت يعانيه ، ولم أكف عن التبول فى فراشى فى الواقع إلا حينما اقتربت من سن البلوغ .

وحتى فى تلك السن ، تعرضت أيضا للاضطهاد . وكنت أطرد من المدرسة مراراً لعدم تسديدى الرسوم . وفى تلك السن أحببت الكتب وأدمنت قراءتها ، وعندما وصلت إلى سن المراهقة تعلقت بامرأة فى مثل سن أمى ، وكدت أجن من فرط حبى لها .. كانت موظفة بدار الكتب

فى باب الخلق . ولاحظ الموظفون والمستعيرون شدة ولهى بها ، رغم أننى لم أجروء على محادثتها ، فمنعونى من دخول المكتبة . وفى تلك الفترة من حياتى أدمنت العادة السرية بشكل محموم ، ولم أمتنع عنها إلا بعد فترة من زواجى .

كانت « سامية » هى أول إنسان أحبنى . وأشعرنى بكينونتى . كانت تعمل كرئيسة للممرضات بقسم جراحة العظام فى أحد المستشفيات الحكومية ، وحينما تقابلنا أثناء الحرب بعد إصابتى فى العمود الفقرى ، لم أضع وقتا . فقد اتفقنا على الزواج قبل أن أغادر المستشفى . وتقبلت هى فكرة أن تعيش معنا فى منزل أبى ، لحين عثورنا على شقة بعد تسريحى .

وجاءت سارة بعد عامين . وضاقت بناء الحجرة التى كنا نشغلها . وأصبح العثور على شقة ضربا من الأحلام . ودب اليأس فى روحى . وزادت الأمور سوءا بوفاة زوج أختى الكبيرة ، ومجيئها لتعيش معنا . وقالت سامية : إنها لن تستطيع أن تعيش حتى نهاية عمرها هنا .. وذهبت لتعيش فى منزل أبيها فى مدينة الفيوم ، وتركتنى لأتدبر أمرى .

ومرت سنة وراء سنة .. وحين زرتها منذ شهرين طلبت منى الطلاق لاستحالة استمرار العلاقة بيننا على هذا الوضع . وقدرت موقفها فطلقتها لأنه لم يكن هناك مفر من ذلك .

قالت :

- خذ بنتك تعيش معك .

قلت مستنكرا :

- وماذا أفعل بها ؟.

قالت باستخفاف :

- تعيش مع أمك . أنا يمكن أن أسافر . ويمكن أن أتزوج . وربما تحتاج للبنت فيما بعد عندما تنتهى فترة الحضانة فتأتى وتطالبنى بها .

قلت منفعلا :

- طيب .. سآخذها . لكن إياك أن تظنى أن بمقدورك أن تريها بعد الآن .

لقد قطعت آخر رباط بيننا .

وهكذا مضت .

قال أمجد :

- أنت المخطئ من البداية لأنك تزوجت . فنان مثلك كان من الضرورى ألا يقيد نفسه . الزواج ألعن شئ . وبصق فى اشمئزاز .

قلت :

- المشكلة هى أننى كنت متوافقا مع زوجتى . وكنت أظن أن مسألة العثور على الشقة لن تتسبب فى هدم حياتنا . لكن ما العمل .. مابالبد حيلة .

قال أمجد :

- يمكن الزواج مرة أخرى .

قلت :

- طيب .. أبحث لى عن أرملة صغيرة لديها شقة وليس لديها عيال .

قال سمير ساخطاً :

- اسمع كلامي .. الزواج نظام عتيق ومتخلف . تعال واسكن معى ، وأنت ستشبع نسوان لغاية ما تزهق . ومن غير زواج ولا يحزنون . في صحتك . اشرب .

وتجرعت الكأس وأنا أفكر مندهشا فى صحتى هذه التى نشرب نخبها ، بينما هى تنسرب وتتبدد وأنا أعبر الأربعينيات من عمرى ، وقد اجتازتنى كل الأمانى التى راودتنى فى سنوات الشباب .

- ٤ -

حين كنت أصعد درجات السلالم العالية ، متحسساً طريقى فى الظلمة ، ومتخوفاً الاصطدام بأحد الكلاب الضالة التى تبيت على « بسطة السلم » هرباً من البرد والصقيع ، راجعت الخطة للمرة الأخيرة فى ذهنى . حسنا سوف أتناول الحبات العشر الباقية من زجاجة « اللود يوميل » . وهى أقراص مضادة للاكتئاب كان الطبيب قد كتبها لى منذ بضعة أشهر ، حينما جافانى النوم ، وروعنى خوف دائم لا أدرى له سبباً من هواجس مفزعة تلح على بأننى سأموت بالسرطان مثلما مات عمى الوحيد بعد عذاب أليم . كان يجعله يعض فى الأرض . وكنت أظل مفتوح العينين أحدق فى الظلام حتى الصباح . ولجأت للخمر كعلاج ، فصرت أشرب يومياً ما يقرب من نصف زجاجة من الحجم الكبير ،

إلى أن تصيبنى غيبوبة مصحوبة بدوار ، فألقى بنفسى على فراشى ، فى ركن الصالة وأغمض عينى وأروح فى حلم طويل ، اتخيل نفسى فيه طائراً عبر مناطق جليدية ، على زحافة تجرها حيوانات خرافية ، واهبط بالقرب من إحدى البحيرات المتجمدة .. وآخذ فى اللعب مع ابنتى بالقرب من الكوخ الجميل الذى يجلله البياض ، وتبرز منه مدخنة غريبة الشكل . وأسمع صوت أجراس كنائس وأسراب من الطيور المبتهجة ، ثم أنام فى النهاية لأستيقظ بعد ساعات قلائل وأنا فى حالة من الأعياء .

وفى أحيان أخرى ، كنت أحلم بأننى أركب سفينة قديمة ذات أشرعة بيضاء ، ليس فيها من أحد سواى أنا وابنتى الصغيرة ، نعبر المحيط الهادئ ، ونرسو على شاطئ جزيرة مهجورة ، مثل جزيرة روبنسن كروزو تماماً ، لكن ليس فيها « جمعة » وإنما فيها سامية زوجتى تنتظرنا أمام كوخ جميل مبنى من عروق الخشب . وأسمع صوت أرغن يعزف كونشرتو باخ الكبير . فيهدهدنى النوم فوق أجنحته ، لأصحو بعد ذلك والصداع يكاد يحطم رأسى .

ولما تدهورت صحتى من إدمان الخمر الرديئة والأحلام ، ولم تفارقنى فكرة الموت الذى كنت أخافه وأتمناه . ذهبت إلى الطبيب الذى أوصانى بتلك الحبوب ، فصرت أتعاطاها بانتظام . نصف قرص قبل النوم ، وبعد فترة ضاعفت الجرعة إلى قرص ثم قرصين وأحيانا ثلاثة حتى أتمكن من الوصول إلى حالة الغيبوبة التى تسلمنى للنوم .

ورغم أنها شفتنى من الأرق وأصبحت أنام أكثر من عشر ساعات يومياً ، إلا أنها لم تشفنى من الأحلام أو المخاوف ، ورسخت فى ذهنى

فكرة الانتحار . وبدأت أعمل فكرى لاختيار الوقت الملائم والوسيلة المناسبة ، فلم تعد فكرة الموت ترهبنى ، بل أصبحت التمس فيها ملجئى الأخير للخلاص من العذاب اليومى الذى أعانيه والمعبر السهل إلى الراحة الأبدية . غير أن فكرة أن أترك ابنتى وحيدة ، هى فقط ما كانت تعذبنى .. وكنت أعزى نفسى بأن أمها حينئذ سوف تأخذها إن عاجلا أو آجلا . أو أن أختى أو أمى سوف ترعاها حتى تكبر وهكذا حسمت أمرى ، وقلت لنفسى وأنا أولج المفتاح فى قفل الباب ، إننى يجب أن انتهى من هذه المهمة الآن ، وبشكل حاسم . فرعب مع نهاية - كما يقول المثل - خير من رعب بلا نهاية .

- ٥ -

أغلقت الباب ورائى ، وراحت أصابعى تتحسس فى العتمة بحثا عن زر النور ، غير أننى عدلت فى اللحظة الأخيرة ، حتى لا أزعج أحداً من النائمين ، وخيل إلى أننى سمعت صوت نهنهة وبكاء مكتوم ، فتسمرت فى مكانى ، ثم أسرعت فأضأت النور لأبصر سارة تجلس متكومة على نفسها فى فراشى ملتفة بالأغطية وهى ترتعد .

أذهلتنى رؤيتها فى هذا الوضع ، فهرعت نحوها مترنحا ، وضممتها إلى صدرى بقوة . قلت : - ما الذى أيقظك فى هذه الساعة ؟.

قالت بصوت أقرب إلى الهمس :

- كنت أنتظرك .. لماذا تأخرت ؟

- لو كنت أعرف أنك ستنتظرينني الليلة لعدت مبكراً . كل سنة وأنت طيبة .

وخلعت حذائى ، ثم انسللت إلى جوارها بعد أن أطفأت النور واحتويتها فى صدرى كأنها قطة صغيرة . وفكرت فى أنها سوف تعوقنى الآن عن تنفيذ ما اعتزمته وسمعتها تقول :

- على فكرة ماما جاءت صباح اليوم .

تنبهت على وقع الخبر وحبست أنفاسى :

- وما الذى أتى بها يا ترى ؟.

أجابت البنت فى بساطة :

- كانت تريد أن تأخذنى معها

خفق قلبى بشدة وسألت مندهشاً :

- تأخذك معها . كيف ؟

- نينة قالت لها انتظرى بابا .

- وأنت يا حبيبتى .. ماذا قلت لها ؟.

أجابت بعفوية :

- أنا قلت لها سأبقى مع بابا . لأنه يحبنى أكثر منك .

ضممتها إلى صدرى مزهوا وقلت :

- ألا ترغبين فى الإقامة مع ماما ياسارة ؟

- لأ يا بابا .. أرجوك تخلينى هنا معاك .

- يعنى أقول لها إنك حتفضلى معايا .

- معاك على طول يابابا .. أنا قلت لماما أن تأتى وتعيش معنا هنا ، لأنى باحبكم أنتم الاثنين .

وانخرطت فى البكاء ، فانهلت عليها تقبيلا ، وأنا أغالب دموعى . وبعد لحظات أحسست بها قد استغرقت فى النوم ، وإن ظل جسدها ينتفض من آن لآخر . وتذكرت مرة أخرى الأقراص التى كنت أنوى أن أتناولها . وهممت للحظة أن أنهض ، غير أننى ألفيت البنت تتشبث بى وجسمها يرتجف ، كأنما كانت تدرك بحدسها البرئ ما أنا بسبيله .

ضممتها إلى صدرى ، وأحكمت الغطاء على جسدينا ، وتناهى إلى سمعى صوت « فيروز » الحالم يأتى من مذياع قريب وهى تغنى وسط السكون « ياطير ياطاير على أطراف الدنى .. لو فيك تحكى للحبايب شوينى .. ياطير » وأغلقت عينى .

مجلة « إبداع »

مايو ١٩٩٤

في يوم صحو

قبل أن أخرج إلى الطريق تطلعت إلى صفحة المساء عبر الفتحة العلوية في شباك حجرتي الوحيدة . كان هناك بصيص ضئيل من أشعة الشمس يلح على استحياء وسط كتل هشة من سحب رمادية . وتراءى لي أن في الجو بوادر دفء مفاجئ . فقلت لنفسي « هذا يوم صحو ستطلع فيه الشمس فلا داعي لأن أحمل المعطف والمظلة » .

فتحت درج مكتبي وأحصيت النقود للمرة الثالثة خلال هذا الصباح ، وتيقنت من أنني وضعتها في جيب سترتي ولم أتركها ورائي في مكان ما فكثيرا ما كانت تحدث معي مثل هذه الأمور . اتخيل مثلا أنني قد فعلت هذا الشئ أو ذاك ثم أتبين بعد ذلك أنه قد حدث فقط في ذهني وليس في الواقع .

وقد كلفني ذلك السهو المرضي غالياً قبل سفري .. كنت موقنا من أنني قد أخذت معي « الألبوم » الصغير الذي احتفظ فيه بصور أطفالي ، لكنني اكتشفت وأنا أفرغ حقائبي بعد أن وصلت أنني نسيته في مكان ما .

خرجت قاصداً حديقة الحى لأتريض قليلاً قبل أن أذهب إلى الحى التجارى بمركز المدينة . وفى الطريق تحسست جيوبى لأتأكد من أننى لم أنس المفتاح فى الباب . وفى تلك اللحظة هبت ريح ثلجية مباغتة ، فشعرت بالقلق وقلت لنفسى أنه كان ينبغى على أن آخذ المظلة معى . على الأقل تحسبا لتقلبات الطقس . لكن سطوع الشمس التدريجى أشعرنى ببعض الطمأنينة .

كانت الشوارع ساكنة خالية من المارة . فقدكان اليوم هو «السبت» وكانت أوراق الأشجار المصفرة تغطى الأرصفة المبلولة بماء المطر الذى هطل - ولابد - أثناء الليل .

تحسست النقود فى جيبى بثقة زائدة وفكرت فى أنه سيمكننى الآن أن اشترى لأطفالى كل الملابس الشتوية التى كانوا يحتاجونها . وساشترى لمحمد بالذات حذاءً مبطنا بالفرو وبنطلون « جينز » .. ولوفاء معطفاً جلدياً وقبعة . ولو تبقت بعد ذلك نقود فساشترى لزوجتى فستانا صوفياً وبعض الملابس الداخلية .

وكنت قد اقتصدت طوال الأشهر الخمسة الماضية مبلغاً لا بأس به من خلال ضغط نفقاتى المعيشية . كنت آكل وجبتين طوال النهار . وامتنعت تماماً عن التدخين حتى أتمكن من توفير هذه النقود فى وقت قصير .

وقدرت أنهم قد يتذكرونى برسالة تطمئننى عليهم فعلى الرغم من أننى قد أرسلت إليهم أكثر من عشرين خطاباً منذ وصلت إلى هنا لكن لم يصلنى منهم أى رد .

فكرت أن زوجتى لابد قد نفذت وعيدها وقررت أن تقاطعنى طوال فترة غيابى كنوع من الاحتجاج الصامت على سفرى دون أن أعبأ برأيها الرافض للفكرة من أساسها .. كنت أرى أنها فرصة العمر بالنسبة لى . الحياة فى عاصمة أوربية والعمل .. والحلم بالثراء .. أنها فرصة لن تتاح لى بعد ذلك أبدا . لكن زوجتى كان لها رأى آخر . كانت ترى أننى واهم ، وضائع لا محالة ، وأننى سوف أندم بعد فوات الأوان .

ويبدو أنها كانت تستشف المستقبل ، فبعد مرور أقل من شهرين ، أحسست بثقل الوحدة ، وأضنانى الحنين إلى بلادى وأهلى ، ولم تعد جولات المشى المرهق فى أرجاء المدينة التى خبرت كل أنحائها ، ولاقضاء الساعات فى المقاهى والبارات تجدى شيئا . وداهمتنى الهواجس والظنون ، وأصبحت أنام نوماً قلقاً ، وأنهض عدة مرات أثناء الليل وأنا أشعر بخفقان شديد فى قلبى . واستولت على فكرة أننى سوف أموت وحيداً هنا .

وقررت بعد فترة من التردد أن اذهب إلى طبيب نفسى ، فربما يصف لى بعض الحبوب المهدئة فأنام دون أن تراودنى الهواجس ، لكننى رحت أؤجل الذهاب يوماً بعد يوم مكتفياً بتعاطى عدة كئوس من الخمر الرديئة ، كانت تكفل لى نوما بلا أحلام .

* * *

دخلت إلى الحديقة . كانت شبه خالية . لم يكن هناك سوى سيدتين عجوزتين تجلسان قرب النافورة المغلقة التى علاها الصدأ .. وسيدة

أخرى عجوز تنزه كلبها الضئيل . وقريباً من المصرف المائى الضحل ، بدا طفل صغير وحيد كان يطل من فوق الجسر الخشبى القصير على بعض البطات البرية تسبحن منفردات ، ملقياً إليهن ببعض فتات الخبز الأبيض الذى تعطيه له أمه الجالسة قريباً منه تراقبه بعين الحذر .

جلست على أحد المقاعد الخشبية أراقب الطفل الصغير وهو يلهو . وفكرت أن أولادى لابد أن يكونوا جالسين الآن فى فصول مدرستهم الخربة يرتعدون من البرد . وحاوت أن استرجع فى ذهنى صورة وجوههم البريئة فى آخر مرة رأيتهم فيها لكننى لم أفلح .

تطلعت إلى ساعتى . كانت قد جاوزت التاسعة والنصف بقليل . قلت أنها لابد تقترب الآن من الثانية عشر ظهراً فى وطنى . ومن المؤكد أن الشمس تسطع فوق البيوت الفقيرة . وبعد ساعة ونصف على وجه التقريب سينتهى اليوم الدراسى ويخرج أطفالى من المدرسة وربما تكون أمهم فى انتظارهم عند البوابة الحديدية ، وسألت نفسى وأنا أنهض لأتمشى قليلا فى الحديقة .. ترى هل يفتقدوننى كما افتقدهم ؟.

توقفت برهة عند « بيت الدب » المقام على ربوة عالية يحيط بها أخدود شبه دائرى ممتلئ لنصفه بالماء . ورحت أرقب الدب القطبى ذا الفراء البنى الثقيل والعيون الضيقة وهو يتجول بهمة فى تلك المساحة المحدودة وقد بدأ لى أنه عصبى على غير عادته ..كان يتشمم شيئا ما أو رائحة ما فى الجو ويرفع رأسه متطلعا نحو الشمس الشاحبة التى كانت تسطع برهة ثم تغيم لحظات لتعود للسطوع مرة أخرى .

ونعق غراب عدة مرات فوق هامات الأشجار القريبة الجرداء . ولم يكن هناك أحد سواى بالقرب من الدب القلق الذى ظل يروح ويجئ ويدور حول الأخدود نازلا وصاعداً دون أن يكف . ترى هل كانت الشمس والدفء المفاجئ هما سبب قلقه واهتياجه ؟ أو أن إحساسه بالأسر فى تلك المدينة الموحشة قد أثقل عليه ؟.

وتناهى إلى سمعى فى تلك اللحظة صوت دقات الساعة فى مبنى المجلس البلدى القريب . كانت تدق العاشرة . « ينبغى أن أمضى الآن » قلت لنفسى وأنا اخترق الحديقة من أحد المخارج الجانبية ، ماراً بتلك المقبرة الموحشة التى طالما تجنبتها فألفيتنى فى شارع ملئ بالمساكن ذات الطابق الواحد . شارع لم أكن قد رأيته من قبل ، أنا الذى كنت أعتقد أننى قد خبرت كل أنحاء برلين . وتناهى إلى سمعى فجأة وسط السكون صوت أنغام عربية وصوت مطرب عربى رخيم الصوت لم أستطع تذكر أسمه ، ينبعث من أحد النوافذ الموارية .

توقفت أنصت برهة للصوت الذى ما لبث أن انقطع . كأننى كنت استمع إلى صوت صديق عزيز .. أو كأننى فى حلم أفقت منه سريعاً . ولما ركبت الترام شبه الخالى وطالعتنى تلك الوجوه الآوربية المحايدة ، المغلقة على دخيلتها ، رحت أحاول أن اتذكر اسم المطرب الذى سمعته لتوى ، لكن عبثا حاولت .

وفى مركز المدينة . كان الزحام على أشده . كأنه يوم عيد ، وكأن كل الناس قد اجتمعوا هنا . كانوا يجلسون على المقاعد الخشبية المتناثرة

فى الميدان وعلى الأرصفة الرخامية العالية ، ويستلقون على الخضرة مستسلمين لأشعة الشمس التى كانت تنير كل شئ بنور بهيج .

دخلت المحل التجارى الكبير فى « الكسندر بلاتز » وسط كوكبة من الناس الذين ينتهزون الفرصة للشراء السريع لاحتياجاتهم قبل أن يوصد المحل أبوابه ظهراً . ودرت بين كافة الأقسام .. وزاغ بصرى فى زحمة الألوان والأشكال والأضواء .. أأشترى هذا أم ذاك ؟. أيناسب أولادى هذا أم لا ؟. وهل ياترى سيكفى ما معى من نقود ؟.

وفى القسم الخاص بملابس الأطفال ، رحت اتطلع إلى الأشياء والمعروضات وقد انتابتنى حيرة مفاجئة . كانت البائعة تسألنى عن المقاسات المطلوبة . أخذت اعتصر ذاكرتى فى تلك اللحظة لأتذكر كم كانت مقاسات وأحجام ملابس أطفالى منذ آخر مرة اشتريت لهم فيها شيئا .. هكذا ؟ أو هكذا ؟ أكبر قليلا ؟ أو أصغر قليلا ؟ ومن المؤكد أنهم قد كبروا الآن ولم تعد حتى مقاساتهم القديمة صالحة .

ووقفت مرتبكاً ، وشرد ذهنى هنيهة ، فرمقتنى البائعة باستنكار . وكان طابور المشترين من ورائى طويلا فأحسست بالارتباك ، وخرجت من الصف ، وقلت لنفسى معزيا سأحاول أن اتذكر جيداً عندما أجئ فى الأسبوع القادم .

وفجأة شعرت بالدوار ينتابنى ، وأحسست بأننى غريب تماماً عن هذا العالم .. غريب ووحيد .. وحاولت أن ارتكن بظهرى على أحد الأعمدة خشية السقوط ، لكن زحمة الناس دفعتنى رغماً عنى إلى الخارج .

وأفقت فجأة على برودة قطرات المطر الذى أخذ يتساقط فى البداية رذاذاً خفيفاً بلل جبهتى وكفى ، وكانت الشمس قد توارت تماماً .. وأرعدت السماء بصوت مدو ثم ما لبث المطر أن هطل بغزارة . ولا أدرى بالضبط لماذا تذكرت فى تلك اللحظة الدب القطبى الحبيس الذى رأيته فى الحديقة ذلك الصباح .

فكرت أن هذا الطقس المطير قد يخفف عنه بعض كآبته . وتطلعت إلى ساحة الميدان الذى خلا فجأة من الناس وصار موحشاً . ورحت أجرجر ساقيى عبر الشارع العريض الخالى - وسط ريح الشمال التى أخذت تهب وتصفع وجهى - إلى محطة الترام القريبة وأنا أقول لنفسى مؤنبا إنه كان ينبغى على أن آخذ مظلتى معى على الأقل من باب الاحتياط .

بمجلة « إبداع »
(مايو ١٩٩٠)

المـوت والميـلاد

من مطلع النهار ، وأنا مـازلت انتظـر . اترقـب . والخـوف يـأكل من روحي القلقة المتوجسة مسـاحات تتزايد كلما أمتد الوقت وطالت المعـانـاة .

اتسـمـر فى مـقـعدى على ذلك المقهى القـابع عند مـدخل الحـارة ، اتطلع إلى الجدران الشاهقة لجامع « المتولى » بمئذنتـه العاليـة ، وبوابتـه الشهيرة التى تعج بالداخلين والخارجين ، بينما تلتقط عينى تلك الجملة المكتوبة بعرض الحائط ، بطلاء أسود حولتـه الفصول المتـعاقبـة إلى لون رمادى باهت « سنبكيك حتى الموت » .

وابتـسم فى رثاء للولاء الذى ضـاع ، وأنا أحـول بصـرى بعـيـداً . ويتناهى إلى سـمعى صوت تلاوة القرآن يتردد من أحد الميكروفـونات . كان اليـوم هو الجـمعـة ، وكـان الناس يتـوافـدون على الجامع من الغـورية وتحت الربع والإشرافـيـة ، شـراذم متـتـابعـة ، يرتدى بعـضـهم الجـلاليب البيـضاء ، ويطلقون لحاهم ، يتوقـفون يصعدون الدرجات الرخاميـة فى خشوع ويخلعون نعالهم ، ويدسونها تحت إبطهم ثم يدلفون .

تذكرت كيف اجتذبني ذلك الجو المعبق بنفحة الإيمان ، وسيطر على فجر اليوم . وأنا اقبض بأصابعى المتقلصة من البرد على كوب الشاى الساخن ، وأشعل سيجارتى حينما سمعت المؤذن يكبر ، بصوت صاف حلو النبرات .. لا أدرى ما الذى ساقنى إلى الدخول ، متهيبا إلى صحن المسجد رغم أننى لم أقرب الصلاة منذ زمن بعيد .

دخلت . وانحشرت وسط زمرة المتعبدين . وأحسست بوحشتى تتبدد ، وأنا بين هذا الجمع القليل من البشر الذين ينعمون - ولاشك - براحة اليقين . أصلى واسجد ، وأنصت إلى صوت الإمام يتلو الآيات بصوت خاشع ينفذ إلى القلب .

وصافحنى جيرانى ، وقالوا لى «حرماً» ببشاشة وود ، فارتبكت ، وتوقفت الكلمات على شفتى ، وابتسمت خجلا وأنا انسحب للوراء ، لاستند على عامود الرخام الجرانيتى فى الركن منهكا . وابتهلت لله أن يمنح امرأتى القوة والعزيمة ، لتجتاز « المحنة » ، وأن يهب « نينه » الصبر ، والسلوان ، وطمأنينة الروح فى ساعتها العصيبة .

خرجت مسرعاً من المسجد . وهرعت إلى « حوش آدم » . خطوت داخل حوش البيت القديم واكتنفتنى تلك الظلمة المشبعة بالرطوبة ، ودب إلى قلبى رغماً عنى ذلك الخوف الذى انغرس فى أعماقى منذ الطفولة ، ولم استطع التخلص منه . الخوف من شبح الموت الذى يكمن فى الزوايا المعتمة . صعدت الدرجات الحجرية المتآكلة مستنداً على الدرابزين الخشبى المهتز ، وأنا الهث . دفعت باب الحجرة برفق ، وأنا أكاد أسمع صوت ضربات قلبى ، ودخلت متسللا .

كان أبى لا يزال يقعد هناك على طرف « الكنبة » عيناه أحمرتا ، وبدا كما لو كان قد كبر عشر سنوات منذ تركته قبيل الفجر . وكانت «نينه » ترقد على ظهرها وقد اسندت رأسها على وسادة مرتفعة . كانت مغمضة العينين ، وصوت أنفاسها المنتزعة يشخب فى وهن .. وتسكن حركتها هنيهة ولا يكاد يسمع لها صوت شهيق أو زفير ، ثم تنطلق بغتة شهقاتها ، متقطعة يصحبها شخير ، بينما يشحب وجهها شحوبا مخيفا .

جلست لصق أبى ، واحتضنته مواسيا ، وشعرت بضآلة هيكله ، وهشاشة جسده . وكدت أبكى لكنه داعب خدى مشفقا وسألنى بلهفة :

- ما الأخبار عندك ؟

قلت بلا مبالاة مصطنعة :

- ليس بعد .

دفعنى برفق وقال :

- طيب . اذهب الآن . وعد مرة أخرى لتطمئننى . وإن شاء الله خير .

نهضت متردداً . وملت على فراش الجدة ، وتحسست جبهتها الناصعة العريضة فراعتنى برودتها . وانحنيت فوقها وقبلت عينيها الكبيرتين ، كأنما أودعها وداعى الأخير ، ومضيت .

ولم استطع أن امنع نفسى من البكاء فى الطريق . لقد كنت أودع فيها طفولتى وذكرياتى ، وجزءاً عزيزاً من نفسى . كانت أمنيتها الوحيدة - كما قالت لى - أن تعيش فقط حتى تحمل طفلى الأول بين ذراعيها وتهدهده ، وتحتويه بين صدرها ، كما احتوتنى منذ صباى ، ومنحتنى قلبها العطوف الكبير ، لكن الموت لم يمهلها .

مسحت الدموع التى أغرقت وجهى ، وتوقفت عند مدخل القرية حيث تفجؤك رائحة الجلود المدبوغة فى الحوانيت المنتشرة فى الدروب ، وتطل عليك البيوت القديمة بمشربياتها المحطمة .

كانت أم زوجتى الأرملة الوحيدة تشغل حجرة صغيرة فوق سطح واحد من تلك البيوت . وكان يشبه فى نظامه بيت جدتى تماماً ، غير أنه كان يضج بالحياة أكثر من بيتنا الذى يشمله على الدوام سكون راسخ ثقيل .

يبهرنى هنا كم الحيوات التى تزحم المكان . كلما ولجت من الباب العالى إلى الحوش الذى تتناثر على جنباته حجرات مفتوحة الأبواب على الدوام . ألمح فيها الأسرة العالية ذات الأعمدة النحاسية . وفى الأركان تفح مواقد الجاز ، وتنفذ إلى الأنف روائح تقلية لطبيخ يجهز للغداء . وفى المنور المجاور للسلم اسمع رفيف أسراب الحمام وهديله . فى العشش الملصقة على قمة الحائط .

واجتاز الحوش مطأطئ الرأس . يفعمنى ذلك الحس الإنسانى بالألفة بينما يحيينى الجيران ، وينادوننى باسمى مجرداً ، تعبيراً عن

مودة صادقة . وتتسلل إلى نفسى طمأنينة راسخة تنبع من إحساس حقيقى بالترابط ، واقفز درجات السلم مثنى فثلاث ، وأنا ألهث وقلبى يضطرب داخل صدرى ، بينما أدعو الله أن يكف عن تعذيبى وينهى ذلك الموقف .

وعند بسطة السلم الأخيرة ، على مشارف السطح ، يصك سمعى صوت صرخة فاجعة منتزعة من القلب ، فيها عذاب لا طاقة لأحد على احتماله . حبست أنفاسى ، وتسمرت فى مكانى . شلنى الخوف وعضضت شفتى بقسوة . ووجدتنى اندفع إلى داخل الحجرة التى احتشد عند بابها جمع من النسوة والبنات . ونظرن إلى بإشفاق .

كانت ممددة على الأرض ماتزال . وكان وجهها المحتقن يتفصد عرقاً ، وقد انتفخت عيناها . وكانت المرأة تربض عند أسفل ساقيها المفتوحتين ، وقد غطتهما بملأة بيضاء توسخت من طول استخدامها . كبوت على ركبتى جنب رأسها الأشعث ، ومسحت على وجهها بمنديلى ، وتناولت كفها النحيلة بين كفى ، ونظرت إليها مشجعا . تطلعت إلى بعينين دامعتين ملؤهما توسل أخرس ولم تنطق .

وجاءتها الطلقة أخيراً ، عنيفة مكتسحة ، جعلت ظهرها يرتفع عن الأرض فى انتفاضة سريعة مفاجئة . وجعلتها رجة الألم تعض يدى منفعلة دون أن تدرى . قالت المرأة التى بدا عليها الأعياء هى الأخرى :

- خلاص هانت يابنتى . الرأس قربت تخرج . شدى حيلك .

- موش قادرة .. تعبت .. تعبت .

وطلبت المرأة قبضة من السكر ،حشت بها فم الراقدة الذى علاه الزبد ، وأغمضت عينيها فى شبه سبات . قفزت المرأة وصفعتها بقسوة ، ورجتنى أن أخرج واشترى لها بعض العطارة .

خرجت وأنا أكز على أسنانى ، وهرعت مرة أخرى إلى المقهى ، وجلست انتظر . تطلع إلى صبى المقهى فى دهشة ، وأحضر لى كوبا من الشاى ، وقال بشفقة واضحة :

- أرص لك تعميرة ؟.

هززت رأسى نفيا ، وسألته عن عنوان المستوصف القريب من هنا . قال لى بشرح مستفيض ، إنه فى الحبانية عند مدخل شارع محمد على ، قلت لنفسى : إنه لم يبق أمامى سوى قابلات المستوصف ، إذا لم ينته الأمر بعد مهلة أخرى . وفكرت أيضا فى اللجوء للمستشفى . رغم كراهيتى للمستشفيات الميرى ، وتذكرت عجزى عن الاستعانة بطبيب للولادة ، لضيق ذات اليد ورضوخى لفكرة زوجتى فى الاستعانة بالداية رغم شكى فى كفائتها .

وتذكرت آخر مرة كنا فيها معاً .. مضطجعين فى الفراش ، فى ساعة متأخرة من الليل . وكانت تحس برفسات قدم الطفل على جدار بطنها المشدود تخزها .

وأمسكت بكفى فى توسل وقالت :

- ياترى لو مت وأنا باولد .. حتتجوز تانى .. وتنسانى ؟

وضعت كفي على فمها لأسكتها . ونظرت إليها عاتبا ، بينما قلبي يخفق هلعا . وظلت تلك الفكرة التى أثارتها تلح على خاطرى ، وتؤرقنى كعصاب قهرى طوال الأيام التالية . « لو أنها ماتت » قلت لنفسي . « كيف سينتهي بي الحال ؟. يا ألهي ترفق بها . ماذا يبقى لى لو أنها قضت نحبها وهى تلد ؟ إنها عزائى الوحيد وملجئى فلا تنتزعها منى » .

وتذكرت الخطابات الساذجة التى كانت ترسلها لى بين الحين والآخر ، وقتما كنت بالجبهة أثناء الحرب الأخيرة فى أكتوبر .. كانت رسائلها تبدد وحشتى أيام الانتظار الطويل .. كنت أعود إليها لأعيد قراءتها مراراً .. وابتسم لطيبة قلبها ، ولطريقة تعبيرها المباشر عن عواطفها بلا مواراة .

وحين انتهت الحرب وسرحت . مرت على أياما عسيرة كنت فيها بلا عمل . وتلقفنى وقتها إحساس بالضياع والوحدة ، وظلت ذكريات الأيام المريرة التى قضيتها « هناك » تعاودنى وتبرق فى مخيلتى بالحاح صورة وجوه الأصدقاء الذين فارقونى إلى الأبد . وراودتنى مراراً فكرة الانتحار . لم ينقذنى منها سوى وقوف « نادية » بجانبى ..

ومؤازرتها لى .

وحين تجرأت وطلبت منها أن تعيش معى . تتزوجنى ، قبلت بلا قيد ولا شرط . ولم أكن أملك حتى وظيفة مستقرة ، أو مستقبل مضمون . قبلت أن تشاركنى حياتى فى الغرفة المتواضعة الملحقة بمنزل

جدتى فى حوش آدم . لم تعايرنى بفقرى أبداً . كانت تعمل فى مصنع للنسيج خارج القاهرة ، وكنت أظل أحيانا كثيرة بلا عمل . لكنها لم تشك أبداً . كنت أناديها دون أن أدرى ، فى بعض الأوقات ، بكلمة «ماما» . ولم أكن أشعر بأى غرابة لأنها كانت تمنحنى هذا الإحساس بالبنوة .

قلت لها أن صحتها لن تتحمل مشاق الحمل والآم الولادة ، لكنها كانت تحلم بأن يكون لها طفل منى . وكنت أيضا رغم إحساسى بالمسئولية التى ستلقى على عاتقى من جراء ذلك ، أشعر برغبة حارة فى اختبار مشاعر الأبوة . كنت أسأل نفسى بدهشة حقيقية ، كيف تواتينى الجرأة على الإتيان بطفل برئ إلى هذا العالم البشع ؟.

واستعدت إلى ذهنى منظرها وهى تغمض عينيها فى أعياء ، ويشحب لونها . وأحسست بمقدار العذاب الذى تعانيه . وعاودتنى من جديد فكرة احتمال موتها . فانتابنى القلق . لكننى عزمت أن أطرد هذه الفكرة من رأسى .. قمت واتجهت ناحية كشك بائع الجرائد عند زاوية بوابة المتولى .

وقفت اتصفح المجلات التى أبرزت صور أغلفتها جميعا ، مشهد خروج الفلسطينيين من رجال المقاومة الذين تصدوا للحصار . ومشاهد المذابح الجماعية فى المخيمات . والخراب الجامع الذى حل ببيروت الغربية . وشدت بصرى صورة طفل صغير دامع العينين ، يحاول أن يتماسك

وهـو يتشبث بساق أبيه . بينما يلوح بأصبعيه الوسطى والسبابة بعلامة النصر .

ابتـعت إحـدى المجـلات العـربيـة ، وعـدت إلى المقـهى . أخـذت اتصفحها بلاتركيز ، بينما كان صوت الخطيب فى الجامع يعلو ، وهو يتحدث عن الايمان المفتقد فى قلوب البشر . وكيف امتلأ العالم بالشرور ، وزاد الغـلاء واسـتحكمت الأزمـة . وأن السلام والرخاء سـوف يحـلان بالدنـيا حين يخلص الضـمـيـر وتصـفـو النفـوس ، ويؤدى النـاس فـرائض الدين الحنـيف . ثم راح يتـحدث باسـتـفاضـة عن عقـوبة تارك الصـلاة ، التى هى عماد الدين .. وعذاب القبر ، وجحيم اليوم العظيم .

وتسـلل إلى نفسى إحساس غـامر بالضيق ، وتفاقم قلـقـى فنهضت ودفعت الحساب للصبى ، واتجهت نحو الشارع المؤدى إلى المستوصف .

وفى الحبانية عثرت عليه ، فى إحدى الحوارى الصغيرة . مبنى قمئ من طابق واحد ، شمت فى مدخله رائحة المطهرات القوية التى ذكرتنى بعنابر المستشفيات الميدانية وانقبض قلبى من تلك الرائحة ، وقفزت إلى ذهنى صورة عشرات الجرحى والقتلى من زملائى وأصدقائى الذين لفظ بعضهم أنفاسه بين يدى فى تلك العنابر الطويلة الكريهة ، وانبعثت فى داخلى أصوات صرخات وحشرجات من مزقتهم شظايا القنابل فى الصفوف الأماميـة ، وخيل إلى أننى اسمع دوى المدافع ، وصـفير القذائف يتردد عبر الصحارى الشاسعة بطول الجبهة . كان عدد من هذه القذائف يسقط

فوق صفحة القنال ، فيتطاير زبد الماء فى نافورة فجائية . وكان بعضها ، يسقط على مقربة منا فتميد الأرض من تحتنا . وصحوت من استغراقى على صوت سيدة مسنة لها وجه بشوش مطمئن قالت لى :

- خير يابنى . أى خدمة .

رويت لها حكايتى بايجاز ، ولكن بصورة مؤثرة . قالت :

- معك عربية ، ولا تاكسى ؟ أصل ما باقدرش أمشى . قلت :

- العنوان قريب ياحاجة .. خطوتين .

- طيب . انتظر لما أجيب العدة . وأروح معاك حالا .

وأحضرت حقيبة جلدية قديمة ، ناولتها لى ، ثم مضت معى ، وهى تحاول طوال الطريق أن تسرى عنى . وعند باب المنزل أسلمتها ليد حماتى ثم مضيت إلى بيت جدتى . قابلنى أبى على عتبة الحوش .. وقال وهو يقاوم البكاء :

- البقية فى حياتك .. جدتك ماتت .

حط على قلبى الحزن ، رغم إدراكى حتمية هذه النهاية المنتظرة . واحتضنته مواسياً ، وقلت له أننى سوف أعود إلى منزل القريبة لأطمئن على سير الأمور هناك . ثم أعود لأقف معه حتى تنتهى مراسم الدفن .

غادرت الحارة وقد اعترتنى نوبة كآبة .. وتذكرت المعاناة الطويلة التى رزحت « نينة » تحت وطأتها فى أيامها الأخيرة ، والغيبوبة التى

لفتها قبل موتها . وتحسرت على الأيام المجيدة التى قضيتها فى طفولتى معها ، استمع إلى حكاياتها الأسطورية التى كانت تلهب خيالى . وحاولت أن استعيد إلى ذهنى صورة وجهها المشرق أيام أن كانت بعافيتها وصفاء ذهنها .. ولما فشلت رغم تكرار المحاولة ترحمت على روحها ، وعلى الأيام التى انقضت ، ومضيت متثاقلا فى طريقى .

وعند باب الشارع المؤدى إلى الغورية ، داهمتنى جلبة عنيفة ، وهدير هائل يزلزل الأرض . أفقت لنفسى، ورحت أعمل عقلى . وأخذتنى الدهشة من تطور الأمور . كانت أمواج من البشر تسد الشارع ، وكانت هتافات الناس تنطلق مدوية . قال لى أحدهم إنها مظاهرة خرجت لتوها من جامع الأزهر ، عقب صلاة الجمعة .

وكانت المظاهرة تمضى فى طريقها بسلام . كان بعضهم يرفع لافتات تتصدر المسيرة ، تندد كلها بالغلاء والتضخم ، والحياة التى أصبحت مستحيلة . بينماكان البعض الآخر من الشبان الذين حملوا على الأعناق ، يهتف مطالباً بالحرية والديمقراطية . وكان واحد منهم يوزع على الناس بطاقات صغيرة عليها علم فلسطين ، وقد كتب تحتها باللون الأحمر «فلسطين عربية » .

أخذت واحدة منه ، وألصقتها فوق صدرى وسرت مع جموع الناس يجتاحنى الانفعال والتوتر. وتذكرت المظاهرة الكبرى التى حدثت منذ بضع سنوات . وكانت قد بدأت هكذا أيضا بمسيرة سلمية احتجاجا على موجات الغلاء المتلاحقة . ثم عمت البلاد لكنها لم تلبث أن تحولت إلى مذبحة .

كنت وقتها في ميدان «التحرير» . أسير ونادية متعلقة بذراعي . منهمكين . أعيانا البحث عن مسكن للإيجار في حواري بولاق الدكرور . كان التعب قد حل بنا ، فتوقفنا أمام أحد المحال التي تبيع الفول والطعمية ، اشترينا بعض السندويتشات وجلسنا على أحد المقاعد الحجرية المنتشرة في حديقة الميدان ، والمواجهة للنافورة المعطلة هناك . ورحنا نزدرد طعامنا بلا شهية ، وشعور غامر بالتعاسة يشملنا . لم نتبادل الحديث .. حل علينا صمت خانق .

كان الوقت غروباً . والدنيا شتاء . كنا في منتصف يناير . وكانت الشوارع قد بدأت تخلو تدريجياً مع تقدم الليل . لكن فجأة تحول الميدان إلى كتلة هائلة ملتحمة من البشر الساخطين . كانت صيحاتها ترج الأرض بهديرها المدوي . احتجاجا على الاستلاب والبؤس وضياع الأحلام . التي جعلونا نعيش عليها زمنا ، صابرين . صاغرين ، لكنها لم تسفر في النهاية إلا عن خديعة كبرى . وجرفنا الحماس أنا ورفيقتي ، فلم نلبث أن انضممنا للمظاهرة .

تذكرت كل هذا وأنا أمضي مع الخضم المتلاطم من الجماهير التي التهبت حماسة . وانضم لمسيرتنا جموع غفيرة من الأهالي ، كانوا يقدمون من الحواري والأزقة والورش الصغيرة . ورفع بعض رايات ملونة كتلك التي تشاهد في الموالد الدينية . وفجأة علا صوت الصراخ في مؤخرة الحشد ، وتشتت الجمع الهائل في كل اتجاه . ولم ألبث حتى سمعت صوت سنابك الخيل على بلاط الشارع ، واضحاً ، مخيفاً .

التـفت للخلف مـذعـوراً فـأبصـرت جنود الخـيـالة من رجـال الأمن ، وهم يجتـاحون الشارع كفرسان المماليك فى العصور الغابرة ، أيديهم تعمل بالهراوات فى أجساد ورؤوس المتظاهرين .

توقفت من بعيد أرقب المشهد . ولاحظت كم الطوب المنهمر كالقذائف من جموع الناس العزل . ومرت أمام عينى قذيفة من هذا النوع ، لكنها أخطأتنى . وتقدم العسكر أكثر فأكثر . وانطلقت أعيرة نارية فى الهواء للإرهاب . فـأطلقت ساقى للريح . ودرت حول عـدة حوارى . واختـرقت بضعـة دروب حتى وصلت إلى منزل حمـاتى ، وقـد تقطعت أنفـاسى . وعند عتبة باب البيت قابلتنى واحدة من الجيران . سألتها بلهفة :

- خير . قالت وهى تبتسم فى غموض مثير :

- الحمد الله . قامت بالسلامة .

صـعـدت الدرجات مـثنى فـثلاث ، والعـرق يسـيل من جبـهـتى . مسحته بمنديلى فأبصرت لون الدماء يخضب النسيج . تحسست وجهى بأصابعى فاكتشفت جرحا سطحياً . ابتسمت باستخفاف ودخلت الحجرة التى عـمتهـا الفوضى . ألفيت زوجتى مسـتلقيـة على الفراش مسـبلة العينين فى إعياء ، وقد أزرق وجهها ، بينما كانت الحكيمة تلف المولود فى لفائف بيضاء . قالت :

- مبروك عليك .. تتربى فى عزك .

ملت على نادية وقبلتها بإشفاق . وقلت :

- حمدا لله على السلامة .

أفتر ثغرها عن ابتسامة واهنة .. والتفت للمرأة ، فناولتنى اللفافة البيضاء التى يبرز من قمتها رأس صغير يكسوه شعر غزير وقالت :

- سمى .

حملتها بحذر ، وقلبى يخفق . وهززتها برفق فتثاءبت ، وفتحت عينيها الكبيرتين بلون العسل ، كعينى جدتى .. وتطلعت إلى برهة من خلال أهدابها الطويلة ثم أغفت ثانية وابتسامة مبهمة تطوف فوق فمها الدقيق المضموم .. همست نادية :

- سمها .

قلت وأنا استرجع فى ذهنى صورة وجه الطفل الحزين على غلاف المجلة ، ومنظر الفرسان على صهوات الخيل يجتاحون الشارع . ووجه جدتى الناصع الذى سطع أمامى مفاجئا ، بينما أمسح جرحى الذى بدأ ينزف من جديد :

- « ولاء » .

افتر وجهها عن ابتسامة حلوة وقالت :

- ولاء ؟. أومأت برأسي مؤكداً .

مجلة إبداع

(يناير ١٩٨٤)

نافذة على البحر

- ١ -

فى أحيان كثيرة ، استيقظ من نومى قبيل الشروق ، يملؤنى ذلك الشعور الكاسح بأننى سوف ألفظ أنفاسى مختنقا بتأثير الأدخنة التى تبثها مئات المداخن المشرعة نحو السماء المكفهرة دوما والمطبقة فى جهامة على بيوت حارتنا الفقيرة المتلاصقة فى حميمية مصدرها خوف من مجهول .

وينتابنى عندئذ حنين جارف إلى رؤية البحر وسماع هدير الأمواج وعصف الرياح الطلقة البليلة ، وأشعر بالرغبة الحارة فى الرحيل عن هذا العالم القمئ ولو حتى بالخروج من جلدى ،

وربما يظن البعض أننى ساحلى المولد ، عشت طفولتى وصباى على شواطئ المتوسط أو الأحمر ، ثم قذفت بى ظروف الحياة إلى هنا . إلى مدينة الحديد والصلب فى الجنوب الغربى من المنطقة الصناعية بحلوان ، موظفاً صغيراً ، أميناً لخزانة فرعية بمصنع الصلب ، لذا فمن الطبيعى أن ينتابنى الحنين الجارف إلى زرقة البحر ورائحته .

لكن الحقيقة هي غير ذلك على الإطلاق . فأنا لم أر البحر في حياتي سوى مرتين . فقط لا غير ، يفصل بين الأولى والثانية أكثر من ربع قرن . في المرة الأولى كنت صبياً لم اتجاوز العاشرة ، يتيم الأب ، أعيش في كنف أمي التي تحيك الملابس للجيران والمعارف لتدبير أمور معيشتنا في حجرة واسعة كبيرة في حارة الروم بالغورية .

كان أبي رحمه الله ، والذي لا أتذكره جيداً ، فقد مات حينما كنت في الرابعة من عمري ، يعمل طرابيشيا في محل بالكحكيين ، وقد مات فجأة عقب سهرة مع الأصحاب بتأثير الإفراط في تدخين المخدرات . وقد اضطرت أمي للعمل ، فلم تكن معونة الأهل وبالذات خالي الوحيد « محمد » تكفي لتدبير نفقات معيشتنا .

وأذكر أنه ذات صيف ، عرض علينا خالي الذي كان يعمل تاجراً للخردة ومخلفات الجيش الانجليزي بشارع الأزهر والذي أصبح ثرياً فجأة وأن لم يتخل عن بخله المتأصل . أذكر أن خالي هذا عرض على أمي أن تصحبه إلى المصيف بأبي قير الذي كان قد أشترى فيها « شاليه » متواضع ليقضي فيه مع زوجته الشابة وأولاده الثمانية موسم الصيف .. ورحلنا مع خالي في أواخر شهر مايو ولم نعد إلى القاهرة إلا مع منتصف سبتمبر .

كان خالي وقتها يأتي في مساء الأربعاء ، ويرحل في صباح السبت ، فلم يكن من المتصور أن يترك تجارته ليقضي عطلة الصيف كلها على شاطئ البحر ، وقد اكتشفت فيما بعد أنه لم يصحب أمي

معه لتروح عن نفسها و « تغير الهواء » على حد تعبيره ، وأنما كان الهدف الحقيقى هو أن تقوم بخدمة زوجته وأولاده فى الشئون المنزلية من طبيخ وغسيل وتنظيف . فكأنه قد استأجر خادمة بالمجان ، أو بمجرد لقمة عيشها مع ابنها الصبى .

وهكذا لم تر أمى منظر البحر طوال الصيف إلا عبر نافذة المطبخ ، بينما كنت أنا ألهو طوال النهار فى بقعة منعزلة على الشاطئ ، وحيداً إلا من سنارة من البوص صنعتها بنفسى وكوز من الصفيح ، كنت أجمع فيه الأسماك الصغيرة التى يسعدنى الحظ باصطيادها .

ولسنوات طويلة ظلت تلك الأيام التى عشتها ككائن طبيعى فى عالم طبيعى لم يفسده البشر . حيث الشمس العفية والبحر والوقور ، والهواء النقى ذى النكهة الفريدة ، وخلو البال وبراءة الأطفال التى لم تعرف بعد انكسار القلب ، وتحطم الآمال . محفورة فى ذاكرتى ، استعيدها كلما حاصرتنى الهموم فى صباى ومطلع شبابى ، وفى أعقاب مغادرة أمى لهذا العالم الذى لم ينصفها ولا أنصفنى أيضا . وأحن حنينا جارفا للمجئ إلى أحضان البحر الرؤوم فى هذه البقعة النائية التى شهدتنى صبياً نقياً ، لعلنى استرد بعض براءتى التى ضاعت فى زحام المدينة وضجيجها ، واستعيد سكينة روحى التى أهدرت وسط صخب الحياة .

- ٢ -

استيقظ فى الفجر يغمرنى ذلك الشعور الكاسح بالاختناق ، افتح

النافذة الوحيدة فى حجرة نومى ، لكن الهواء الذى يأتينى يضاعف من شعورى بالضيق فهو هواء محمل بالغبار ، وذرات الأسمنت المتساقطة كرذاذ المطر ورائحة العطن والوسخ المنبعثة من الأرض الترابية الزلقة من بقايا السكان التى يلقونها أمام أبواب منازلهم القميئة .

وأسرع بارتداء ملابسى لأخرج إلى الشارع الواسع رغم علمى بأننى لن أجده أفضل . فمداخن قمائن الطوب التى تطلق الهباب فى أوجه السائرين تفح بلا انقطاع ، والسيارات المحتشدة بكثافة عند مدخل كوبرى المرازيق الذى يعبر النيل إلى البر الشرقى فى إنتظار عبور القطار القادم من الواحات والداخل إلى قلب مصنع الصلب ، تهدر هديراً يتردد صداه فى داخلك ، ومواسير عوادمها تقذف بالأدخنة السوداء اللزجة فى وجهك .

وأعرف أن الحال داخل أروقة المصنع لن يكون أفضل ، فالأفران المشتعلة والمشرعة نحو السماء تحيل صفحتها الزرقاء إلى اللون الأحمر القانى المشوب بالرمادى .

أقبع وراء خزانتى الحديدية ، أحصى النقود التى أحضرتها من الخزانة العمومية بالأمس . ما يزيد على المائة ألف جنيه ، حزم من أوراق حمراء وخضراء وبنية وزرقاء .. ويوسوس لى شيطانى : فى أى مدى زمنى ياترى ستتمكن من جمع مبلغ محترم يمكنك من الحصول على شقة لائقة فى حى نظيف لتعيش فيه كالآدميين ؟.

عشر ، عشرون ، ثلاثون سنة على الأقل ، لو أننى تمكنت من

ادخار كل مرتبى الذى لايتجاوز المائتى جنيها فى الشهر . يا الله .. لو أننى استطيع أن آخذ نصف هذا المبلغ المودع فى خزانتى وأفر إلى مكان بعيد ، وأختفى ثم أغير اسمى وشكلى ، وأبدأ حياتى من جديد .

وأغمض عيناى محاولا تخيل شكل الحياة التى يمكننى أن أحياها فى بلد ساحلى بعيد فى فيلا صغيرة ذات نوافذ مطلة على البحر . لو أننى أفلحت فى الأفلات من أيدى الشرطة أو ساعدنى الحظ مثلما يساعد كبار المحتالين الذين يفلتون بالملايين المسروقة من عرق الكادحين ، ويخرجون من المطارات مثلما الشعرة من العجين لينعموا بالجاه والرفاهية فى بلاد الفرنجة .

وأصحو من حلمى الشيطانى ، مدركاً أننى أعجز من أن أقدم على شئ كهذا .. وأتمنى فقط لو أنهم ينتدبوننى مثلما حدث فى العام قبل الماضى من قبل اللجنة النقابية لاصطحاب الوفد المسافر فى مارس المقبل للإشراف على إصلاح شاليهات الشركة استعداداً للصيف .

تلك كانت هى المرة الثانية فى حياتى التى أذهب فيها إلى البحر بشواطئ مصيف رأس البر ، حيث قضيت هناك ما يقرب من الشهرين فى فيلا تطل على البحر مباشرة فى شاطئ « ١٠١ » المشهور .

كانت حجرتى التى أقيم فيها بمفردى ذات شرفة رحبة تطل على البحر . وكنت أقضى الساعات جالساً بمفردى فى الشرفة رغم برودة الجو ، أطل على الشاطئ الخالى ، والأمواج الهادرة ، وأرقب مراكب الصيد التى تجول فى عرض البحر بحثاً عن الرزق .

وأحيانا كثيرة كنت أنزل فى الصباح الباكر ، عقب الشروق لأتمشى وحيداً على الشاطئ يلفحنى الهواء البارد القادم من البحر ، فأعب منه فى رئتى بنهم ، وأنا أحس بنقائه وصفائه وحنوه . وأتمنى فى دخيلتى ألا تنقضى هذه الأيام العزيزة .

- ٣ -

استيقظ فى كل صباح ينهشنى هذا القلق الذى لا أعرف مصدره . والإحساس بالإختناق الذى لا أستطيع التغلب عليه ، وأعرف أن الاكتئاب المزمن الذى أعالج منه ، قد تملكنى تماماً وسيطر على جميع حواسى . وأن أية عقاقير لن تفلح فى تبديده .

وأتذكر اقتراح الزملاء لى بأن أتزوج . لكننى أرفض تماماً هذا الحل . رغم شوقى وحنينى إلى الأنثى ، وإلى الأطفال والبيت . وتكوين الأسرة . فما معنى أن تتزوج من فتاة فقيرة مثلك ، لتسكن سكناً فقيراً ، وتعيش حياة تعسة فقيرة ، وتنجب أطفالاً تعساء تورثهم الفقر ؟. لا . أن الزواج فى مثل حالتى لن يحقق أحلامى البسيطة . البسيطة جداً . منزل متواضع فى مكان هادئ بعيد ، ونظيف لم يتلوث هواءه بعد .

وأشعر وأنا أقف فى نافذتى الوحيدة على حين فجأة بالأرض تميد من تحتى ، لكننى لا أعبأ كثيراً مثلما كنت فى الماضى .. فأنا أعلم علم اليقين أنه قطار الحديد الخام يعبر فوق شريطه الحديدى الملاصق أو يكاد بالمنازل ، وتأتينى رائحة احتراق القار والزيت فيتضاعف إحساسى بالاختناق ، وأغمض عيناى لأحلم بالبحر وزرقته ، وأمواجه المزبدة المتلاطمة ،

واسمع الهـدير الصـاخب يعلو ويعلو ، وأشعـر بأن العـاصـفـة القـادمـة ستهب حتـما ، قـوية ، عنيفـة ، كاسـحة . ولسوف تقتلعنى من مكـانى لا محـالة .

(مـارس ١٩٩٦)

عبر النهر

الآن . وبعد أن ألقت به الشاحنة الضخمة عند مدخل الجسر ، ولفها ضباب الصباح الكثيف وهى تمضى هادرة فى طريقها . تنتابه الرغبة فى الهرب . الرغبة فى نسف كل شئ وتدميره ، حتى لو انتهى به الأمر إلى تدمير ذاته .

ذلك الخوف الغريزى الذى يستشعره فى كل مرة يحس فيها بالخطر الداهم ، يملأ الآن كل كيانه ممتزجًا بمقت هائل ومرير . يضاعف من شعوره بالرغبة فى الهرب .. لكن أين المفر ؟.

لأمد طويل ظل يتجنب مواجهة العقبات ، ويحنى رأسه باستمرار للعواصف حتى تمر .. لكن ذلك التصرف المرائى لم يكن يحل الأمور إلا لأمد قصير . بعدها كانت تتفاقم من جديد وتتراكم كلها معاً بشكل مفزع لتعود لمحاصرته بوحشية تدفعه للتفكير فى الهرب مرة أخرى بعد أن يتكشف له مدى عجزه الشائن .

الآن . يبدو الأمر مختلفاً تماماً. لأول مرة يواجه نفسه بتحدٍ حقيقى .

يدفعه إصرار غريب لم يعهده فى نفسه من قبل ، إلى قبول ذلك التحدى ومواجهة مصيره الكئيب . إصرار ممزوج بالمرارة والعنف والمقت للحياة كلها . والرغبة الكاملة المتحررة من كل قيد ، فى التخفف من عبئها الذى ظل يثقله طويلاً .

كان الضباب الكثيف ينشر مظلته البيضاء الشاحبة عبر النهر والحقول التى تحفه . حاجبا رؤية الأشياء . تقدم بخطى حذرة فوق الأرض الطينية الزلقة المنحدرة نحو مدخل الجسر . وحين هم بالخطو فوقه ، اكتشف فجأة أن أجزاءه قد انتزعت من مكانها .

رمى بصره عبر النهر الذى كان أنفاسه الصباحية تتصاعد فى شكل أبخرة بيضاء شفافة تضاعف من كثافة الضباب وحجب الرؤية ، فلمح بصعوبة « فناطيس » الجسر الحديدية الضخمة ، وقد تناثرت بطول النهر مفككة ، وهى تتأرجح وتتصادم ببعضها بطريقة هينة وناعمة مع التيار .

أحس بالضيق يعتريه ، فكر فى أن عليه الآن أن يتقدم قليلا بمحاذاة الساحل حتى يعثر على مكان مرسى معدية الأهالى ، فيعبر عليها النهر إلى الجانب الآخر . راوده خاطر الهرب والفرار مرة أخرى ، مادامت الظروف تبدأ منذ الآن فى معاداته ، والوقوف حياله . لكنه طرده من باله بازدراء وتقدم على الطريق بإصرار .

كانت أكواخ الفلاحين المتناثرة على طول ضفتى النهر ، بشكلها الزرى الذى يبعث بالرثاء فى نفسه ويثير لديه شعوراً خفياً بالذنب ،

تبدأ مع تباشير الفجر فى الاستيقاظ . كان الأهالى قد آلفوا رؤية الجنود منذ زمن طويل ، لذا لم يثر مشهده أدنى شعور معاد لدى مروره بل على العكس ، كانت تحيات القرويين البسطاء تنهال عليه ، وتدعوه على الرحب والسعة .

جال بخاطره فجأة أن المدينة التى تركها وراءه منذ أكثر من ساعتين ربما لم تستيقظ بعد من سباتها العميق وبلادتها المتأصلة . وحين تذكر مشهد الشوارع المظلمة فى الليل والنوافذ المطلية باللون الأزرق الكابى ، والسيارات المقيدة الأضواء التى تزحف فى رعب ، تكاد تتلاصق من خوف المباغتة والصدمة أو بدافعها ، أحس بالكآبة تأخذ بخناقه .

كانت الناس تتحسس الخُطا فى الشوارع المعتمة ، وتبدو له كالأشباح تحت الضوء الأصفر الخابى ، وحين قادته قدماه دونما إرادة إلى الشوارع البورجوازية .. شوارع قصر النيل وسليمان وعماد الدين ، بوغت بالوحشة والبرودة والفراغ ، كان الخراب قد حط عليها ولفتها الظلمة وهجرتها الزحمة المتكالبة والأضواء الرخية . اكتسحه شعور بالشماته والحقد الجارف الذى لم يجد له متنفسًا ، وتمنى فى أعماق نفسه ، لو امتدت أيام الحرب أطول مدة ممكنة ، لكنه لم يلبث أن تراجع عن أمانيه متحسراً حين تذكر خسارته الفادحة فيها .

انحدرت به الأرض فجأة ولاح أمامه شبه أخدود تتصل نهايته بشاطئ النهر . وحين أدركت عيناه فى تلك الفجوة الترابية المجعدة ، وجه الفلاحة المتشحة بالسواد واقفة فى جوار بغل محمل بأكوام السباخ

أدرك أنه قد وصل إلى بغيته .

تطلع عبر النهر ، باحثًا عن مكان « المعدية » . كانت ترسو على الجانب الآخر يغلفها الضباب . ولم يكن هناك أحد عليها . نظر إلى الفلاحة مستفهمًا قالت :

- أزعق فى المراكبى .

صرخ بكل ما فى صوته من قوة على المراكبى الذى كان يعرفه جيداً ، ولكنه لم يتلق أى رد . وأخيراً وبعد أن بح صوته اقترحت الفلاحة قائلة :

- شد معايا الجنزير لحد ما ترسى هنا .

مد يده إلى السلسلة الحديدية الثقيلة التى تتصل « ببكرة » المعدية وتنتهى إلى الشط الآخر ، وجذبها من القضيب الحديدى الذى يثبتها فى الشاطئ ، وراح يسحبها بكل قواه تساعده الفلاحة من الخلف .

راحت المعدية تنزلق ببطء وهى تتقدم نحو الشاطئ . أحس بيده تنفلت فوق السلسلة التى يقطر منها الماء بتأثير الشحم الذى خضبها ، حتى كاد أن يسقط لولا أن سندته الفلاحة بكلتا يديها . مسح يديه فى الخيش الذى يغطى السباخ ، وعاود مهمته من جديد . وحين ارتطمت حافة المعدية بالشاطئ الترابى أرعدت السماء بشكل ينذر بالمطر .

صعدت الفلاحة أولا ، وجذبت فى يدها لجام البغل الذى تولاه

الخوف ، فراح يدفعه من الخلف حتى استقر فوق سطح المعدية ثم قفز وراءه . مدت الفلاحة يدها وجذبت السلسلة من البكرة وراحت تدفعها في الاتجاه العكسي ناحية الشاطئ الآخر . شعر بالخجل من نفسه فمد يده رغم شعوره بالإعياء وراح يجذب السلسلة من الخلف بكل ما تبقى لديه من قوة .

توقف قليلاً حين أدركه التعب ، وكانت المعدية قد بلغت منتصف النهر تقريباً ، حيث كان الضباب يبلغ قمة كثافته ، بحيث تعذر عليه أن يبصر مياه النهر بوضوح .. بدا له كما لو أنه يخوض في بحر مسحور يقود إلى التهلكة ، بحر تسكنه الجنيات التى كان يسمع عنها فى طفولته .. كل شئ من حوله يبدو له كما لو كان يدور فى عالم مجهول بدائى . أو فى حلم من أحلام صباه القديمة . تنبه فجأة على صوت بوق سيارة عسكرية . كانت تندفع على الطريق فى الجانب الآخر ، مد بصره على طول النهر المتشح بالبياض وفكر فى مأموريته التى انتهت سريعاً . تلك التى كانت مساحتها الزمنية لاتزيد على عشرين ساعة ومع ذلك تبدو له كما لو كانت قد استغرقت دهراً بأكمله .

لقد رأى أمه - حقيقة - وعانقها. وأوشك أن يبكى على صدرها ، ورأى شمس الخريف الباهتة تسطع فوق البيوت القديمة التى يحبها ، والسماء الزرقاء المكللة بقطع هشة من السحب . والناس والضجة الأليفة التى يحدثونها ، والأرصفة الملونة ، ووجوه الفتيات الحلوة ، والمقاهى . لكن كل ذلك كان كفيلاً بأن يبهجه فى و قت آخر .. لولا

عنابر المستشفى التى كان قد غادرها منذ لحظات ، تلك العنابر الطويلة الدامية التى تنبعث منها أنات المصابين ورائحة « الليزول » والدهاليز الضيقة التى كانت تنزلق فوق بلاطها الذى لوثته الأقدام السريعة للممرضين والأطباء والجنود ، والنقالات المندفعة نحو غرف الإسعاف السريع .

تنفتح أبواب المستشفى الحديدية على جهامة سيارات «الميكروباس» البيضاء المغبرة التى تنسل ببطء وتتوقف بحذر أمام المدخل الواسع حيث تفتح أبوابها ، فيتلقى رجال الإسعاف هؤلاء الرجال الذين حرقتهم الشمس ، وسودت ملامحهم ، تتصاعد أناتهم وهم يهبطون فوق النقالات .

كان يشعر كأن دوامة تلفه وتسحقه ، وحين اندفع يحمل « م » بنفسه مع واحد من زملائه الجنود على واحدة من هذه النقالات ، لم يكن عقله قد استوعب بعد أى شئ مما يدور حوله . اندفع بحمله الثقيل إلى المصعد وهو يلهث . وقد طار صوابه من رؤية نزيف الدم القانى الذى لم تفلح أكداس القطن المخضبة كلها باللون الأحمر والمنضغطة على صدره فى إيقافه . وحين انتهوا إلى غرفة الإسعاف التى تكدست فيها النقالات هرع إليه طبيب شاب ، وفحصه سريعاً ثم غطاه بالملاءة ، وطلب منه الخروج برفق بلهجة ملولة . وحين احتواه الشارع المصطخب . صدمته الشمس التى كانت قد أشرقت لتوها بعد أن بددت من حولها السحب .

غشت عينيه بضوئها الصارخ . وصك سمعه صوت الترام الذى راح

يصلصل على شريطه الحديدى فى زحمة الميدان ، وهو يتقدم ببطء ، وصوت الجلبة المعتادة فى المقهى القريب واصطدم فجأة وبلا قصد بمتسول مبتور الذراع راح يلحف عليه فى السؤال . ولما أفلح أخيراً فى اختراق حاجز الكتل البشرية على سلم «الأتوبيس» . وانحشر جسده بشدة وسط زحمة الأجساد المنضغطة وفجأت أنفه رائحة عرق نفاذة ، شعر برغبة عارمة فى البكاء ، لكن دموعه لم تطاوعه » .

أفاق لنفسه فجأه ، حين لكزته الفلاحة برفق وهى تناوله السلسلة ليجذبها لنهاية المسافة الباقية على بلوغ الشاطئ . فكر فى أن عليه الآن ، بعد أن يصل للشط أن يبحث عن سيارة عسكرية تأخذه فى طريق السويس إلى « الروبيكى » . وبعدها يبحث عن وسيلة تنقله إلى الجبهة حيث يواجه مصيره هناك .

فجأة أرعدت السماء ، وأضاءها برق عاصف . ثم راحت تمطر بغزارة .

أحس بالغم ينتابه . ولما ارتطمت حافة المعدية بالشاطئ ، فكر فى أنه سوف يتعذر عليه الآن العثور على سيارة وسط هذا الطقس الخطر . لكنه حين كان يهبط إلى الشاطئ ، نظر بطرف عينه إلى الفلاحة فى شبه وداع ، ففوجئ بها تبتسم ابتسامة كبيرة تملأ وجهها كله . ابتسامة بدت له متفائلة أكثر من اللازم .

بمجلة « إبداع »
(يونيه ١٩٨٨)

١ - يوم الحمام

فى تلك الأيام التى كان يعرف فيها من جدته - قبل أن ينام - أنهم سوف يذهبون صباح الغد إلى « الحمام » . كان الأرق يداهمه .. يظل قلقاً . ومتوتراً ، يترقب انبلاج الفجر .. واللحظة الحاسمة التى تنهض فيها جدته من فراشها بعد أن تسمع صوت « الآذان » . ثم يأخذ فى مراقبتها من تحت الأغطية بعينيه المغمضتين نصف إغماضة ، ويتصنت لحركاتها الخافتة وهى تتوضأ من الأبريق النحاسى ، وتبسمل ثم تضع البيشة فوق رأسها وتسحب السجادة من فوق الكنبة وتوقف لتصلى بخشوع وجلال .. وتبتهل بصوتها العريض .. العميق إلى الله العلى القدير ، أن يقرب البعيد ، ويشفى المرض ، ويغفر الذنوب .. ويتوب على الخلق أجمعين .

وبعد أن تنتهى من هذه المراسيم المقدسة ، تهرع إلى المطبخ ، وتعد الإفطار . وتضع براد الشاى على السبرتاية ، ثم تتنحنح قليلاً ، وتقبل نحوه بثبات . فيدق قلبه بقوة ، ويغمض عينيه .. تميل عليه عندئذ ، وتقبله فى خده قبلة متأنية تجعله يشم الرائحة الحلوة للصابون الذى

اغتسلت به ، وتهمس فى أذنه بكلماتها المفعمة بالحنان .. فيفتح عينيه ويبتسم لها .. ثم يتوارى تحت اللحاف معابثًا .. وترن ضحكتها الطيبة التى يعشقها فى سمعه فى تلك اللحظة ويسمع جملتها المعتادة وهى تميل عليه لتنتزع اللحاف من فوقه :

- قوم يا شيخ كده بلاش دلع .

يقفز حينئذ من فراشه ، مغلوبًا على أمره .. فيغتسل بسرعة بينما تصطك أسنانه من برودة المياه .. ويرتدى ملابسه على عجل .. ثم يجلس أمام الطبلية مع الجدة ، يتناولان إفطارهما ويثرثران وهما يحتسيان الشاى الساخن .

بعدها تسحب الجدة ملاءتها السمراء من تحت المرتبة ثم تحبكها بإتقان الخبير على جسدها الطويل الناصع البياض الذى كان يدهشه جماله العارى فى الحمام ، وتناوله « الدلو » بعد أن تضع فى « قعره » الليفة الكبيرة وقطعتان من الصابون النابلسى .. وفلاية من العضم ، وقطعة من الحجر الأحمر الذى تحك به الكعوب وباطن القدم ، وتحمل هى تحت إبطها المناشف والغيارات النظيفة لكل منهما .

* * *

كان قلبه الصغير يكاد يثب داخل صدره وهما يخترقان شارع «الباطنية» المزدحم بالدكاكين والمقاهى إلى « خوش قدم » ومنها إلى «الغورية» - ذلك الشارع الفسيح الذى تمرح فيه عربات الحنطور - فى طريقهما إلى « حمام السكرية » .

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يذهب فيها إلى الحمام الشعبى مع جدته . كان قد ذهب معها مراراً من قبل واستثاره ذلك الجو الأسطورى الغريب . استحوذ على كل اهتمامه .. إلا أنه فى هذه المرة بالذات كان خائفًا .. خائفًا وملهوفًا وراغبًا كل الرغبة فى الذهاب .. رغم أنه يكاد يشعر بدقات قلبه المتلاحقة ، فيبتهل إلى الله السميع - في سره - ألا تكتشف الجدة السر الخبئ فى أعماقه .

راح يتطلع إلى وجوه النسوة والفتيات اللاتى كن يحملن فى أيديهن . صرر الملابس ومعدات الاستحمام ، وهن يتسابقن فى ضوضاء محببة - كتلاميذ المدارس - على الدخول من الباب الخارجى المطلى بلون أزرق كابى علقت فى أعلاه كف حديدية تقبض على كرة من الصلب .. ويتخيل بتوتر داخلى لا يستطيع كبح جماحه ، كيف سيراهن بعد لحظات ، وهن عرايا متجردات من كل ما يسترهن داخل الحمام الذى يملؤه ضباب البخار الساخن .

رفع بصره إلى جامع الظاهر بيبرس بمئذنته الشاهقة المواجهة للحمام ، وراح يتأمل النقوش والزخارف التى تملأ نوافذه العديدة .. وحين لمح بعض المصلين وهم يخلعون نعالهم عند عتبته الطاهرة .. أحس بشئ ما ينخسه فى ضميره .. وطأطأ رأسه باستكانة وقد ساوره شعور الندم . وحين رفعها ثانية التقت عينه بعينى فتاته النزقة . كانت تحملق فيه بشيطنة واستخفاف وابتسمت له فى ابتهاج أضاء ملامحها وهى تقفز على السلالم العالية إلى داخل الحمام وقرصته فى ذراعه قرصة ذات مغزى فارتعش ارتعاشة هزت جسده كله .

شددت جدته قبضتها على يده لاشعورياً .. وهى تهبط درجات السلم العالية ، وتدخل إلى الممر الطويل المؤدى إلى الاستراحة الخارجية حيث تقبع فى أحد أركانها تلك المرأة العجوز صاحبة الحمام ، وصبيتها « العورة » التى تتسلم ملابس وصرر المستحمات وتحفظها إلى ما بعد الحمام ، بعد أن تقبض سيدتها الأجر .

ملأت أنفه تلك الرائحة الغريبة التى تنبعث من تلك الغرفة العالية السقف المشققة الجدران .. رائحة لم يستطع أن يتعرف كنهها أبداً ، رغم أنها كانت تستثير فى أعماقه كوامن غريبة تتبدى له لأول مرة فى حياته .

رمقته الفتاة العوراء وهو يخلع ملابسه على « المصطبة » الخشبية المفروشة بالأكلمة والبطاطين والشلت ، والتى تشغل نصف مساحة حجرة الاستراحة تقريباً وهمست لجدته بصوت مسموع :

- ده كبير ياختى .. عيب تدخليه مع النسوان .

قالت جدته باندهاش واستنكار :

- كبير ده إيه .. سلامة الشوف . ده لسه عيل صغير .. قطة مغمضة .

ثم دفعت إليها بصرتى ملابسهما ، وجذبته من يده وهو عار إلا من منشفة فوق خصره ، واقتحمت الباب العالى السميك الذى يحجب وراءه الأصوات والحرارة إلى قلب الحمام .

راح يتأمل بانبهار .. من خلف ظهر جدته التى كان خده يكاد يلامس ردفها - ذلك الحشد الهائل من الأجساد النسائية التى يلفها البخار والحرارة . جماعات ، جماعات ، جماعات . يملأن أرجاء المكان .. هنا وهناك .. مستلقيات حول النافورة التى ينبثق منها الماء الساخن أو سابحات فى مياه المغطس الذى يتصاعد منه البخار سحباً ضبابية تلف الأشياء فى غلالة شفيفة .

أحس بالعرق ينداح من كل جزء فى جسده وهو يتأمل تلك الأرادف السمينة الهائلة التى تروح وتجئ من أمامه ، وتلك السيقان والأفخاذ المنفرجة فوق البلاط ، تشد بصره عند نقطة تلاحمها ، وتستثير فيه مشاعر مبهمه خرساء وانفعالات لم يعرفها من قبل .

وانتابته غصة شديدة فى حلقه وهو يتأمل تلك النهود الملقاة فى إهمال على جوانب صدورهن ، وهن مستلقيات فى خدر لذيذ ، بحلماتها البنية اللون البارزة كحبات من الزبيب . وأحس فجأة بالرغبة فى البكاء . كان هناك شئ ما لايدرى كنهه يدوّم فى أعماقه ، يعتصره ، ويرجه بقسوة ، ويدفع به إلى قمة من اليأس والحزن والحنين .. قمة لم يبلغها أبداً من قبل .

وانتبه دفعة واحدة عندما ألفى نفسه وحيدا .. أدرك أن جدته تركته بمفرده وذهبت لتستحم فى المغطس مع رفيقاتها من « الستات » الكبار .

فكر فى التراجع مرة أخرى ، وارتداء ملابسه والجلوس فى الخارج ،

على المصطبة حتى تنتهى جدته من استحمامها . لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة لاتخاذ القرار الحاسم . ظل يقدم رجلا ويؤخر الأخرى وفى تلك اللحظة بالضبط أحس بيد قوية ، ناعمة الملمس تقبض على ذراعه من الخلف فالتفت إلى الوراء مفزوعاً ليجدها أمامه - فتاته الجريئة - تبتسم له ابتسامتها التى تخيفه .

أخذت تنظر فى عينيه مباشره وخبث شيطانى يطل من عينيها السوداوين الواسعتين . تلاحقت أنفاسه بسرعة ، وراح يلهث وهى تجتذبه إلى ذلك الركن المظلم من الحمام . سار وراءها كالمنوم ، وقد أحس بأن إرادته كلها تنفلت من يده لم يكن يود أن يكرر معها ذلك العبث الذى اقترفاه فى المرة السابقة والذى جعله لايذوق للنوم طعماً طوال ثلاثة أيام متتالية . لكنه لم يكن يملك أى إرادة للرفض .

مالت نحوه فى الركن المعتم ، وقبلته فى جبهته وهمست بصوت كالفحيح :

- أنت خايف منى ؟.

تسمر فى مكانه ، وانعقد لسانه ولم ينطق . اجتذبته إلى صدرها العارى فأحس بحلمتيها فى مقدمة صدرها المتماسك الدافئ توخزانه فى وجهه .. وشعر بركبتيه تتخلخلان . ضمته إليها بقوة وهوت بشفتيها على شفتيه فى شبق عارم . ووقع كل ما كان يتخيله فى أحلامه طوال الليالى السابقة ويخشاه . وأحس بالألم يداهمه حين انشبت الفتاة أظافرها فى ظهره وهى تضمه إليها بعنف آلمه ، وفجأة تناهى إلى سمعه

صوت نسائى خيل إليه أنه صوت جدته فاستيقظ دفعة واحدة من غيبوته وأفاق لنفسه ، وراح يتلفت يميناً ويساراً - بعد أن اختفت فتاته وذابت فى الضباب الكثيف - وقد أدرك أنه قد وقع فى الفخ وحده .

اصطدمت عيناه بعينى جدته ، فأحس بالخزى يشمله . ود لو انشقت الأرض وبلعته .. فجأة عاودته إرادته مرة أخرى ، فانطلق يجرى باحثاً عن باب الخروج مصطدماً بأجساد المستحمات حتى عثر على الباب وانفلت خارجًا .

ارتدى ملابسه على عجل ، وراح يلتقط أنفاسه وهو يحسب فى ذهنه حساب المواجهة العسيرة بينه وبين الجدة . وشعر بمغص شديد فى أمعائه فدخل دورة المياه وتقيأ ما بجوفه .. وحين خرج . وجد الجدة فى انتظاره وقد ارتدت ملابسها .

ولم تنطق بلفظ . مدت له يدها فوضع كفه الصغيرة فى راحتها مستسلماً وقلبه يخفق . وحين احتواهما شارع الغورية المصطخب رفع وجهه نحوها وأخذ ينظر إليها بخجل وحياء مستجمعاً أطراف شجاعته وقال متلعثمًا :

- نينه .

نظرت إليه بطرف عينيها ولم تنطق .. قال :

- أنا موش عاوز أروح معاكى الحمام تانى .

نظرت إليه فى حنان وود .. وهزت رأسها بفهم وابتسمت له وهى

تعبث بشعر رأسه الأكرت وقالت :

- حاضر ياحبيبى .. طبعاً .. أنت بقيت راجل دلوقت .

ولما عاودا السير مرة أخرى .. أحس بأن هماً ثقيلاً قد انزاح من فوق صدره .. وشعر نحو جدته بعرفان بالجميل ليس له حدود .

مجلة « اليوم السابع »
فبراير ١٩٩٠
بعد فوزها فى مسابقة القصة القصيرة
التى أجرتها المجلة

دائرة الطباشير الأسفلتية

في ذلك الصباح ، في الميدان . فوجئ الناس عند محطة الأتوبيس «بالجثة» . ملقاة على الأسفلت ، في المسافة الواقعة بين رصيفين ، عند مدخل الممر الذى تقف في نهايته سيارات الأتوبيس . ملقاة على ظهرها ومغطاة - كما هي العادة - بجرائد تبرع بها شهود الحادث .

وعلى مسافة بضعة أمتار وقفت السيارة الضخمة التي ارتكبت الحادث . سيارة حمراء من النوع الأمريكي . كانت الجثة محاطة بدائرة واسعة من الطباشير ، لابد أن عسكرى المرور قد رسمها لتحديد مكان وقوع الحادث بدقة .

تجمع الناس فوق الرصيفين المتقابلين ، وراحوا أثناء انتظارهم الطويل للأتوبيس يزجون الوقت بالتأمل في الجثة . لاحظ أحدهم - وهو موظف صغير - أن الجرائد المفروشة فوق الجثة مختلطة التواريخ . فإحداها قديم يرجع تاريخه كما خمن من عنوانه لأسبوع مضى ، بينما الآخر الذى يبدو عنوانه الرئيسي بارز تحت الشمس هو « جورنال » اليوم .

جذبت عيناه فقرة صغيرة فى أسفل الصفحة ، لصق إعلان « مارلبورو » المكتوب بلون أحمر وبخط كبير . أمعن النظر وقرأ خلسة « مجلس الوزراء يبحث اليوم إقرار العلاوة الإضافية » . مصمص بشفتيه بلا مبالاة وانحدر ببصره إلى أسفل ، وتوقفت عيناه برهة عند ساقى الرجل القتيل المنفرجتين . كان يغطيهما بنطلون كاكى اللون ممزق من عند الركبتين بينما كانت قدماه تنتعلا حذاء ممزقا من الكاوتش الرخيص .

قال لنفسه بشئ قليل من الأسى « ربما كان واحدا من الباعة الجائلين أو المتسولين سقط من على السلم المزدحم ، فأراحه الله نهائياً من عناء الحياة » .

قال أحدهم : لقد طلبوا عربة الإسعاف منذ ساعتين .

رد الموظف بلهجة واثقة :

- لن تقبل سيارة الإسعاف أن تحمله . إنه ميت . وتمتم وهو يهز كتفيه باستهانة :

- « هذا لو حضرت » . وتدخل فى الحديث رجل متأنق الثياب . فقال بلهجة ملولة وهو يرمق الجثة فى اشمئزاز :

- مؤكد أنه المخطئ . لابد أنه كان يحاول القفز من الشباك ليحتل مقعداً عندما سقط فى « الملف » تحت « الدبل » . وأكمل فى سريرته بشماته « يستاهل » .

وعلق رفيق له على كلامه بلهجة متعالية :

- سوف يتسبب فى تعطيل الخط كله . وسكت قليلا ثم عاود :

- مفيش فايدة .

وشيعهما بنظرة نارية وهما ينصرفان للبحث عن تاكسى ، رجل يرتدى عفريته زرقاء قذرة . قال بصوت خافت وهو يتأمل يد القتيل الضخمة التى انزلقت على الأسفلت فى استرخاء :

- بلد بنت كلب . ونظر بطرف عينه جهة اليمين ليتوجه بالكلام للموظف فأشاح الأخير برأسه بعيداً ليتحاشاه . تمتم بلهجة أسيانة :

- غلبان . لابد أن له أولاداً . وقال لنفسه « سوف يحملونه حتمًا إلى مشرحة زينهم أو يدفنونه فى صمت فى مقابر الصدقة دون أن يعلم أحد من أهله بمصيره » .

وحاول رجل ريفى كان يقف بعيداً برفقه امرأته ، أن يجد كلمة يعلق بها على الموقف ، لكنه خجل من الأفندية الذين كانوا يقفون فى جواره . قال واحد من الطلبة يخاطب زميله وهو يشير بأصبعه إلى بقع الدم القليلة التى انتشرت على الأسفلت الساخن داخل دائرة الطباشير :
- من المسئول عن هذه الجريمة ؟.

تمتم الرجل الريفى دون أن يسمعه أحد : « نصيبه » . وأحس لحظتها بقبضة زوجته على زنده وضغطتها المحذرة فسكت . « فكر فى أقاربه الذين يسكنون فى المدينة وقال لنفسه إنها غولة حقيقية تأكل

كل يوم عدداً من أبنائها تحت عجلات الأتوبيس ، وقرر فجأة أن يسافر إلى بلدته فى نفس اليوم . ثم قرأ الفاتحة على روح القتيل .

وارتفعت شمس منتصف يوليو ببطء فى قبة السماء المفتوحة الناصعة الزرقة . وراحت أشعتها الحارة تسقط بزاوية حادة على الدائرة الطباشيرية ، وانصرف أغلب المشاهدين تباعاً وفى هرج ليلحقوا بسيارات الأتوبيس التى كانت تأتى مسرعة لتدخل فى ممراتها مشحونة بكتل الخلق عن آخرها .

وقرب الظهيرة هرع عسكرى المرور العجوز وراء ضابط شاب وسيم وأشار بيده إلى دائرة الطباشير ، وشرح له الموقف فى كلمات مختصرة ، ثم أبرز من جيبه دفتراً صغيراً وأطلع الضابط عليه . فأومأ الأخير برأسه عدة مرات ، واتجه بخطوات رصينة ناحية السيارة مرتكبة الحادث ولمس عجلاتها الخلفية بأطراف أصابعه فى رشاقة كأنه يختبر آلة موسيقية ، وفرق الناس من حوله بشخطه حادة وجملة بذيئة ، ثم استقل سيارة « جيب » كان يركبها اثنين من أمناء الشرطة ، ومضى .

واستغل أحد الباعة الجائلين الزحام الشديد حول الجثة وراح ينادى على بضاعته من الأقلام الجاف والأمشاط وحجارة « الرونسون » وجلدة البطاقة . فانشغل عدد من المتفرجين بمساومة البائع . وفى تلك اللحظة هبت نسمة هواء ضعيفة محملة بالتراب فانزلقت صفحة الجريدة من فوق الجثة وبان جزء من وجه القتيل ، الذى بدا للعيان وكأنه مستغرق فى النوم . فاقترب منه فى وجل شاب صغير راح يتمعن فى الوجه البائس

الذى هئ له أنه رآه من قبل فى مكان ما حاول أن يتذكره عبثاً ، ثم عدل من وضع الجريدة عليه وهو يرتعش ، وعبرت عيناه لاشعورياً على العنوان الرئيسى المكتوب على صدر الجريدة فقرأ « لا رجوع عن الديمقراطية » .

مجلة « القاهرة »
(نوفمبر ١٩٨٧)

بوابات الرحيل

« ميدان المحطة .. آخر الخط » .

قالها المحصل بصوت قوى لينبه الركاب .. وحين توقف الترام . هب من مقعده متعجلاً .. وراح يعدو على الطريق .. توقف هنيهة فى الساحة الخارجية للمحطة وتطلع إلى الساعة الكبيرة المضيئة فوق جبهة المبنى الواسع .. كانت عقاربها تشير إلى الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، وصك سمعه بغتة صوت الجرس النحاسى المألوف ، فاندفع يجرى من الباب الحديدى إلى النفق المظلم الرطب المؤدى إلى الرصيف . لكنه وصل متأخراً ليلمح القطار وهو يغادر المحطة منطلقاً فى طريقه .

عض على شفتيه حانقاً ، وتسمر فى مكانه برهة ، وقد انتابته الحيرة ، وأحس مرة واحدة بالتعب يدهمه ، فتهاوى جالسًا على أقرب مقعد صادفه .. وراح يلتقط أنفاسه وهو يفكر ضائقًا فى الموقف الصعب الذى ترتب على إخفاقه فى اللحاق بالقطار .

كانت المحطة قد خلت تقريبًا من البشر ، وخيم هدوء ثقيل كهدوء

المقـابر على كل شئ من حـوله .. وكـانت القـضـبان الحـديدية المـمتـدة كشـرايين طويلة من قلب المحطة شبـه المهـجـورة ، تلتـمع تحت الضـوء الشـاحب ، بينمـا راح رجل عـجـوز يرتدى زى العـمـال الأزرق ، يغـسل البلاط الملون بخرطوم سميك من المـاء .. ويدندن بأغنية قديمة فى صوت خفيض .

وشعر بأسى خفيف يغشاه ، وهو يتذكر كيف كان حتى عهد قريب - فى طفـولتـه وصبـاه - يعـشق جـو المحطات المشبع بالسـحـر ، ومنظر القطارات المحـتشـدة بالنـاس والمتـحفـزة للرحيل .. ويحلم دائمًا بالسـفـر والمغـامرة واكتـشـاف العـوالم الجديدة فى ذلك الزمن الغـابر .. حين كـان والده يصـحبـه معـه فى أسفاره المتـكررة وفكر وهو يتـأمل الرجل العـجـوز الكليـل المسـتغـرق فى عـمله وغنائه ، كيـف تتـغيـر الدنيـا ولا تبـقى على حالها ، وكيف أنه قد لا يتسنى له أن يأتى إلى هنا مرة أخرى .

وشيئاً فشيئاً ، بدأت تلك السكينة المحيطة به تنتشر فى دمه .. وراح يهـون على نفسـه سـاعـات الانتـظار الطويلة التى يتـعين عليـه أن يحتملها لحين قيام أول قطار فى الفجر .

أغمض عينيه وحاول أن يغفو قليلاً فوق المقعد الحجرى الذى يجلس عليـه . لكن برودة الطقس ورطوبة الحجر التى كـانت تسـرى فى بدنه ، بددت رغبته العميقة فى النوم .

تطلع إلى السـاعـة المعلقـة على الجدار المقـابل للرصـيـف .. كـانت عقاربها تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل .. أحس بالندم لأنه طاوع

نفسه على القيام بتلك الرحلة الخاسرة التى ظن أنها قد تحمل إليه بعض السلوى .. وطاف بذهنه مرة أخرى ذلك الوجه الأليف الذى أتى من أجله .. ذلك الوجه الذى يدرك الآن بوضوح مؤلم أنه قد افتقده إلى الأبد .. وانقبض قلبه بقسوة ، وارتعشت ملامحه ، وقرر فجاة أن يعود إلى المدينة ليلقى عليها وداعه الأخير .

* * *

كانت الريح تعصف فى الخارج ، محملة برائحة البحر النفاذة .. ورائحة الشتاء الذى أقبل مبكراً .. وكان الطريق الطويل الموازى للبحر مهجوراً تماماً .. مظلماً ولاتكاد تضيئه سوى مصابيح واهنة متباعدة .. بينما كان صوت البحر الرتيب لاينى يكرر إيقاعه بقوة متزايدة .. وشق السماء برق مخيف أضاءها للحظة خاطفة ثم بدأ رذاذ خفيف وناعم ينهمر فى حنو .

راح يغذ السير ، وعينه تفحص الطريق بلهفة بحثًا عن مكان دافئ يلتجئ إليه .. ومن بعيد ، على الجانب المقابل للشاطئ ، لمح ذلك الضوء الشحيح الذى انعكس على صفحة الزجاج الملون ، وانسل من بين الستائر المعدنية المنسدلة ، فأسرع ناحيته كمركب ضال لمح الفنار فجأة ، ودخل إلى البار الذى كان قد أوشك على إغلاق أبوابه .

كان الساقى - لحظتئذ - يجمع الأكواب والزجاجات المتناثرة على المناضد فوق صينية كبيرة من الخشب .. نافضًا أعقاب السجائر فى صناديق القمامة .. وكان « البارمان » الأجنبى الملامح يلمع خشب البار

المدهون بلون الموجنة .. ولم يكن هناك أحدٌ بالداخل على الإطلاق .. وحين دخل رمقه كلا الرجلين بعين الدهشة . ولكنه جلس على أحد المناضد المنزوية فى الركن وجسده يرتعش من البرد .. خاطبه الساقى قائلاً من على البعد :

- سوف نغلق بعد نصف ساعة بالضبط . أومأ برأسه موافقًا .

- إذا كنت ترغب فى مشروب تتناوله بسرعة خلال هذه الفترة فلا مانع .

قال بنبرة معتذرة :

- إنها تمطر بالخارج .

هز الرجل رأسه بلا مبالاة .

- طيب .. هات لى زجاجة روم .. وزجاجة صودا .

وتمدد باسترخاء على مقعده .. وتمنى فى دخيلته ، لو يتاح له أن ينتظر هنا لحين قيام قطاره ، ثم أقبل على شرابه بنهم .. ولما أوشكت الزجاجة على الانتهاء .. كان الدفء قد غمر جسده كله ، وانتشر فى أطرافه .. وشعر بدبيب الدماء الحارة فى أوصاله .. وأغمض عينيه ليغفو قليلاً ، ثم مالبث أن فتحهما حين صك سمعه صوت نحنحة الساقى اليقظ .. وحملق أمامه على الجانب الآخر من البار .. ولدهشته أبصر رجلاً يرتدى معطفاً كالحا ويضع نظارات قاتمة على عينيه . لم يدر متى دخل البار .. وحين أمعن النظر إليه ابتسم له الرجل الآخر بود وحرارة كأنه يعرفه .. ثم أومأ له برأسه محييًا ، وحين رد تحيته باستحياء

قام الآخر واتجه ناحيته ، وجلس إلى منضدته ، بعد أن مد إليه يده الباردة وصافحه .. وقال يخاطبه :

- متى وصلت ؟

- صباح اليوم .. وكنت أعتزم السفر فى قطار الليل .. لكننى أخفقت فى اللحاق به .

- ولم لا تبيت ليلتك بأحد الفنادق ، وترحل فى الصباح .

- أنا لا أرتاح للمبيت فى اللوكاندات .

- ألا تعرف أحدًا هنا .. معارف أو أقارب تلجأ إليهم .

- لسوف أرحل فى قطار الفجر .

- إذا لم تكن قد جئت لمقابلة أحد ، أو لقضاء أمر ما .. فما الذى أتى بك إلى هنا إذن .؟

- كنت فقط أرغب فى السفر .. أرغب فى الرحيل .. أود لو انتقلت من مدينتى إلى مدينة أخرى .

- أنت غريب هنا إذن ؟ ألا تعرف أحداً مطلقاً تلجأ إليه ؟

- كان لى صديق قديم هنا .. رفيق من رفقاء الحرب .. إنسان طيب لم أره من ثلاث سنوات ، منذ سرحنا . حين جئت للمدينة تذكرت وجهه .. وذهبت أسأل عنه .. قالوا لى جيرانه أنه قد مات منذ عام مضى .

ضحك الرجل الآخر ضحكة طويلة هازئة ، وقال :

- لقد ضحكوا عليك .

- لا يمكن .. غير حقيقى .. ولماذا يفعلون ذلك ؟ أنت لاتدرى شيئا .. أنت لا تصدقنى إذن .. لقد سألت عليه فأكدوا لى أنه مات .. ثم لماذا تسألنى كل هذه الأسئلة ؟ من تكون أنت ؟.

ضحك الرجل الآخر ضحكته الطويلة الهازئة مرة أخرى وقال :

- ألا تعرفنى ؟.

- أعرفك .. نعم أعرفك . لكننى لا أذكر أين قابلتك .. إن وجهك مألوف لدى . ربما رأيتك فى القطار .. أو ربما أنت تعمل معى فى المصلحة التى أعمل بها . أننى لا أذكر تماماً .. لكن ما الذى أتى بك إلى هنا .. هل تطاردنى ؟.

- أبداً .. إننى فقط أبحث عن شخص ..

- من هو .. ؟ هل وجدته .. ؟

صمت الآخر برهة وحملق فى وجهه ثم اختفت ضحكته وتلاشت واكفهر وجهه وقال وهو يمد قبضته الثقيلة ويضعها على كتفه :

- نعم .. لقد وجدته . إنه أنت .. إنه أنت .. أنت .

وتنبه على صوت الساقى وهو يربت على كتفه بلطف قائلا :

- لقد توقف المطر .. سوف نغلق المحل بعد لحظة .

هز رأسه وابتسم فى حرج .. ثم دفع حسابه وخرج .

* * *

لفحه الهواء البارد فتنبه تدريجياً ، وعبر الطريق ناحية الكورنيش ، وتوقف أمام البحر . كانت الأمطار قد غسلت الشوارع ، فانبعثت من الأسفلت رائحة مبهمة ونفاذة .. وكان البحر لايزال يضرب الشاطئ بإصرار لايلين .. إيقاع متكرر وهادئ لا يكف لحظة ، ولا يعبأ بشيء .. ترنيمة أبدية ستظل حتى نهاية الحياة .. تتتابع الأمواج وتتسابق مزبدة .. متعالية ، ثم تتبدد على الصخور الخضراء ، رذاذا متطايرا ، وتتلاشى ، لتأتى من بعدها موجة أخرى . موجات وموجات .. تولد وتموت ، تموت ثم تولد من جديد لتموت بلا نهاية .. ولا معنى .

وشعر بالخوف يتسلل إلى نفسه من منظر البحر الرهيب .. وفحيح الأمواج المتتابعة .. وجعل يمشى على طول الطريق ليقاوم الرغبة الملحة فى النوم ويبدد الوقت الذى كان يمضى ببطء قاتل .

وحاول - أثناء ذلك - أن يبدد من ذهنه تلك الفكرة التى تلح عليه منذ عدة أسابيع وتؤرقه ، فكرة أنه سوف يصاب بمرض عضال يقعده تماماً ويجعله يحتضر مدة طويلة ، ثم يموت وحيدا بلا رفيق . كانت هذه الفكرة تزعجه منذ أمد طويل .. رغم أنها فكرة لا أساس لها من الواقع إلا أنها تضخمت فى ذهنه كجثة خرافية ، وراحت تلح عليه أثناء نهاره وطول ليله .

وحاول عبثا أن يستكنه تلك الفكرة .. فأدرك أنه ربما كان يرغب فى الموت فعلا ، ولكنه يخشاه رغم ذلك ، ولا يكاد يتصور حدوثه .. وحاول من ثم أن يهرب من نفسه .. حاول أن يرحل ليفلت من آثار تلك

الفكرة التى تحاصره وتقض مضجعه فأقدم على السفر إلى هذه المدينة التى أحبها منذ زمن بعيد .. آملا أن يمنحه ذلك ، عزاء وسلوى لروحه المضطربة .

وربما كان السبب وراء إقدامه على السفر أيضا .. صورة صديقه « ن » التى أخذت تعاود الظهور فى مخيلته ، قبل أسبوع من سفره .. تلح عليه وتقفز إلى ذهنه بلا مبرر فى ساعات أرقه بالليل .. رغم أنه لم يره منذ أكثر من ثلاث سنوات .. ترى هل كان يدرك بشكل حدسى أنه مات ؟.

أنه لم يؤمن طوال حياته بهذه الخوارق الميتافيزيقية .. لكنه على الرغم من ذلك .. طاوع الإلهام الغريب ، وتركه يقوده إلى المدينة التى شهدت توثق عرى صداقتهما .

ولما شق طريقه وسط حوارى « باكوس » وأزقتها الخربة .. وهو يحاول العثور على المنزل الذى تاه عن باله .. كان هناك ذلك الهاتف الخفى يؤكد له أنه لن يقابل صديقه أبدا .. لن يرى وجهه الحلو البشوش يطالعه من حوش المنزل المعتم .

طرق الباب بكف مرتعشة وقلب وجل .. وحين خرجت إليه تلك المرأة المكدودة الملامح ، تنهى إليه ذلك الخبر الفاجع بلا مبالاة أو تأثر .. لم يندهش .. ولم يفاجئ .. كأنه ما جاء إلى هنا إلا ليؤكد حدسه .

قالت له المرأة بعد أن تفحصت ملامحه وهيئته برهة واطمئنت إليه :

- اتفضل يا أستاذ .

ولما ألحت .. وكان متعبا من طول المشوار .. دخل إلى الغرفة التى كان يسكنها صديقه من قبل .. كانت ملامحها قد تغيرت كثيراً بعد أن أودعت فيها الساكنة الجديدة حاجياتها .

لم يحاول أن يسأل .. كيف .. أو لماذا ؟ لأنه إدرك ألا جدوى من ذلك لكن المرأة - وكانت تقطن بالمنزل من قبل أن تحتل تلك الغرفة - أبلغته أنه قد مات فجأة .. بلا سبب ، وبدون أن يمرض أو يقعد .. فى ظهر يوم قائظ منذ أكثر من عام .. جاء رجلان من الحى يحملانه على كتفيهما . قالا إنه سقط فى الطريق مغشياً عليه ، فتبرعا بحمله إلى هنا بعد أن عرفا عنوانه من بعض الناس .

ولم يكن هناك من يعرف له أقارب . فتكفل بعض كرام القوم بدفنه على حسابهم واستولى صاحب البيت على الأثاث القليل للمتوفى تسديداً للمتأخر من الإيجار .

أومأ برأسه للمرأة شاكراً معروفها .. ولم يقرب الشاى الذى حملته إليه صبية صغيرة ملتهبة الجفنين .. واستأذن من المرأة بعد أن شكرها مرة أخرى . وعند بسطة السلم ، نادته المرأة لتسأله سؤالا غاب عن بالها طوال تلك المدة :

- حضرتك أخوه ؟ أومأ برأسه فى حزن .

قالت وهى تمصمص بشفتيها وتهز رأسها بأسى ودهشة :

- البقية فى حياتك .

* * *

توقف . وقد أحس بدوار خفيف يشمله ، وفراغ شعر معه برأسه يرن كما لو كان فارغاً مجوفا أو مملوءاً بسائل زئبقي ينسكب على جدران جمجمته . ارتكن بمرفقه على السور . وحاول أن يقاوم التعب الذى دهمه مرة أخرى ، ودعك جفنيه المثقلين ليطرد النعاس الذى يغالبه .

تقدم فى خطوات متعثرة وسط حلكة الظلام .. وكان البحر لايزال يفح فحيحه المخيف وسط الصمت المطبق ، وريح الخريف الذى انتهى تلقى تحية الوداع على الشوارع المهجورة ، واقتعد أريكة خشبية مغروسة بالرصيف الحجرى .

وحاول أن يشعل سيجارة ، لكنه أخفق بسبب هبوب الرياح من حوله .. استند برأسه على المقعد وجرب أن يستجمع قواه لينهض من جديد ويتجه إلى ميدان المحطة لينتظر فى أحد المقاهى لحين قيام قطاره .. لكن الليل الحالك الذى كان يطغى على كل شىء ، أنبأه ببعد المسافة بينه وبين الفجر المرتقب ، فلم يتحرك من مكانه .

وأرعدت السماء بقوة هائلة ، وشقها برق عاصف مخيف ، وأضيئت صفحة البحر الزرقاء دفعة واحدة بضوء فضى ساطع .. فخيل إليه فى تلك اللحظة أنه قد لمح سفينة ضخمة قديمة تفرد أشرعتها البيضاء كطائر أسطورى ، وهى تتهادى فوق الأمواج .. ولم يصدق عينيه . قال لنفسه إنه لابد يحلم كعادته ، وأمعن البصر وحدق بقوة ليتأكد من صدق مايراه ، فأبصر أضواء صغيرة كأضواء النجوم تتألق من بين الأشرعة المفرودة .. وبدأ الضوء يتضح تدريجياً .

واقتربت السفينة من الشاطئ ، ثم توقفت على بعد أمتار من موقعه ، ولوح له بعض المسافرين بأيديهم فى ود ظاهر .. وشاهد بينهم وجوها كثيرة يعرفها جيداً .. وجه أمه الطيب الساذج ، ووجه أبيه المغضن الوقور .. ووجه « ن » الطفولى الحزين ، ووجه الرجل العجوز الذى لمحه فى محطة القطار .. وكان لا يزال يرتدى ملابسه الزرقاء ولوح له الرجل ذو المعطف والنظارات القاتمة الذى قابله فى البار .. وصرخ كابتن السفينة فى الميكروفون ، يدعوه للرحيل معهم .. فقفز من مكانه بعد مدة غير مصدق لما يرى ويسمع ، وهرع إلى الشاطئ ، وظل يخوض فى الماء وهو يحاول جاهدا الوصول إلى السفينة التى أخذ المد يجرفها بعيداً فى تلك اللحظة ، فتبتعد بسرعة وتخفت أضواءها تدريجياً ، وظل يصرخ بينما يغمره الماء البارد .. انتظروا .. لا ترحلوا .. خذونى معكم .. أريد أن أرحل من هنا .. أريد أن أعبر البحر الملعون .. لا ترحلوا .. لا تتركونى وحيداً.

وأحس بأنه يهوى من حالق .. يهوى إلى قرارة بئر عميقة الغور . باردة ومظلمة تماما . وانسل إلى روحه المنهكة سكون عميق .

ناس من عالم آخر

قبل أن يخطو أُولى خطواته فى الشارع المؤدى إلى مقصده ، توقف لحظة يستعيد الكلمات التى رتبها فى عقله . لقد صمم على إنهاء هذا الموضوع بأى شكل ، ليس من المستحسن التمادى فيه .. وعلى العموم ليس هناك ما يخيفه ، فالأمور قد تبدو معقدة أحيانا عندما يفكر المرء فى كيفية تنفيذها ، لكن بمجرد ما أن يشرع فى التنفيذ ، سرعان ما تنتهى المشكلة ويتبين أن «المسألة» على عكس ما كان يتصور تماماً .

ألقى نظرة خاطفة على صفحة السماء الغائمة . كان الوقت غروباً ، لكن الشمس كانت قد احتجبت قبل ميعادها بزمان طويل . شعر بالضيق يأخذ بخناقه وفكر مرة أخرى فى التراجع ، لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة بعد أن قطع كل تلك المسافة وأوشك على الوصول إلى هدفه .

تلك هى المرة الثالثة - ويجب أن تكون الأخيرة - التى يلج فيها هذا العالم الغريب . هذا العالم الذى لم يكن ليطوف بمخيلته أبدا أنه يوجد فى ركن من أركان الأرض . كل شىء حوله جامد لا يتحرك . بل راكد مستقر ، ملتصق التصاقاً فيه تصميم عبثى بعفونة وقدم الأرض .

تلك العجوز التى تجلس فى مدخل الحارة . أمام صندوقها الكرتونى المصفر تبيع أصابع الموز المعطوب والعسلية ، يهيأ له أنها قد وجدت مع تكوين الأرض ، تعرف كل الطلاسم والتعاويذ الرهيبة المخبوءة فى الباطن .

لو أنها غادرت ركنها الأثير لحظة ، لسقطت أعمدة العالم الأربع .. ولاستحال عليه أن يميز حارة « حوش آدم » عن غيرها من الحارات .

وأيضا تلك المنازل المكومة بجانب بعضها البعض ، المشحونة بضجيج عشرات الآدميين ، المغلقة فى قسوه على آلاف الرغبات الصغيرة التى لا ترى النور . أنها تخيفه . يخيل له كلما ولج الحارة الضيقة ، وشق طريقه وسطها ، إنها تميل على بعضها ، تتهامس عليه وتفضح سره ، لأنها تعرف ما يستكن فى أغواره العميقة من خبايا .

أخيراً وصل . توقف يلتقط أنفاسه . لو أنه فقط يعثر عليها بمفردها . لسهل عليه إذن أن يتم مهمته دون عائق ، لكن هذا السرب الكبير من العيال يلجم لسانه ، ويشل حركته ، لكن مهما يكن الأمر ، ومهما تكن الظروف سوف ينتهى بأية حال من هذه المهمة الصعبة .

تخطى عتبة الدار ، فاحتوته ظلمة الحوش . أغرقته . ونفذت إلى أنفه رائحة زهمة . نفس الرائحة التى تفجأه كلما جاء . قوية ، نفاذة ، غامضة . أخذ يصعد درجات السلم الحجرى المتآكل الذى تعرف على فخاخه من تجاربه السابقة . توقف على البسطة . وعلى ضوء شعاع واهن أفلت من ربقة الظلام السائد ، لمح باب الغرفة فخفق قلبه بقوة .

نقر على الباب بخفة ، نقرات وجلة قليلا . انفتح الباب عن صبية صغيرة افتر ثغرها عن ابتسامة مضيئة عندما تعرفت عليه ، وأفسحت له بجسدها الضئيل مكانا ينفذ منه .

تهاوى جالساً على الكنبة الوحيدة في الغرفة ، فأنت أنينا موجعا تحت ثقل جسده .. تطلع إلى البنت الصغيرة . كانت بقايا الابتسامة لاتزال تطوف حول فمها الصغير . قرأت السؤال في عينيه فقالت :

- عند الجيران .

- قطب وجهه .

- قاعدة مع صاحبة البيت .

- طيب . ناديها .

كان الباب لايزال مفتوحاً . أسرعت البنت تجرى صاعدة إلى الطوابق العليا . أخذ يتسمع صوت وقع قدميها على بلاط السلم حتى تلاشى . مرت اللحظات ثقيلة . شعر بوحدته فى الغرفة المزدحمة تثقل على صدره . كان خائفا يتحاشى النظر فيما حوله . كل الأشياء هنا كانت قد تحولت إلى كائنات متوحشة ترغب فى افتراسه .

واجهته فجأة تلك الصورة الفوتوغرافية الكبيرة المعلقة على الجدار ، بإطارها القديم وزجاجها المغبر . شدت عينه كما تفعل فى كل مرة . أحس بالقلق يستولى عليه . حول بصره ناحية أخرى . لكنه شعر بأن عينى صاحب الصورة المصوبتين نحوه تلاحقانه بإصرار .

وهتف به هاتف خفى أن يهرب ، ويترك كل شىء وراءه ويدع الأمور على ما هى عليه ، والأيام وحدها تتكفل بحل كل شىء .. ثم ما الذى يدفعه إلى تكرار المجىء إلى هنا ؟ ما الذى يربطه بهؤلاء الناس ؟ أترى هل هى الرغبة فى مشاهدة آلام الغير وعذاباتهم ، أم هو الإحساس بالمسئولية التى ألقتها على عاتقه تلك الظروف الغريبة . ربما .. ربما ، إنه لم يعد يدرى شيئاً . لم يعد يرغب فى أى شىء على الإطلاق . كل ما يتمناه فى هذه اللحظة هو أن يتخلص من هذا الموقف الشاذ الذى زج بنفسه فيه .

فجأة أحس بدبيب خطوات كثيرة تأتى من أعلى ، فتسمر فى مكانه .. وانطوى على نفسه ، وغشيه الإحساس بالترقب للحظة الحرجة .

دخلت الأم أولا ، تغرقها اللهفة ، ويتبعها سرب من الأولاد الصغار . كانت حبلى . لم يلاحظ ذلك من قبل . تحت عينيها تكونت أقواس زرق شبيهة بالكدمات وعلى وجهها تبدت بوضوح علائم إرهاق شديد .

وقفت تمسح يدها فى طرف جلبابها المتسخ بارتباك ، وابتسامة ترحيب ساذجة تعلو فمها ، وفى عينيها أسئلة كثيرة ، تود لو تلقها عليه كلها مرة واحدة .. وتأخذ منه إجابتها فى كلمة واحدة .

افتتحت الكلام مرحبة :

- أهلا وسهلا ..خطوة عزيزة .

ابتسم محرجاً . مرت فترة صمت . عاودت الكلام مرة أخرى :

- انشالله تكون جايب خبر يطمن .

لم يتكلم . هم للحظة عابرة أن يهز رأسه موافقاً ، لكنه تراجع واحتمى فى الصمت .

- مالك .. ؟ ساكت ليه ؟ حصل حاجة كفى الله الشر .

هز رأسه - لا إرادياً . - بالنفى . عاودت الكلام مرة أخرى :

- أنا قلقانه .. قلبى موش مطمن . تالت شهر وموصلنيش جواب واحد .

استجمع أطراف شجاعته وكتم أنفاسه التى كانت تتردد فى اضطراب وقال :

- لك عندى خبر .

امتلأ وجهها كله بتعبير الترقب واللهفة وقالت :

- خير انشالله .. إياك يكون بعت معاك جواب ، أو بعت الأمانة اللى كلمتك عنها المرة اللى فاتت .

مرت فترة صمت ، كان قلبه يخفق بقوة ، والدهشة تعقد لسانه .

قالت فى لهجة خجلى :

- لا مؤاخذة ، الكلام أخذنى . تشرب شاى واللا حاجة ساقعة .

هز رأسه معتذراً وتعلل بأنه ليس ضيفاً ، لكنها التفتت إلى

الوراء دون أن تأبه له ، ونادت كبرى بناتها ، وأسرت فى إذنها ببضع كلمات .. ثم عادت تحدثه بصوت ضارع :

- جاوبنى بصراحة . أنت مخبى عنى حاجة .

ورغما عنه .. بدون إرادة منه ، هز رأسه نفيا استطردت :

- آمال يعنى لا وصلنى منه جوابات ولا أخبار ليه ؟

تقوقع على نفسه لحظة ، ومرت فترة صمت قصيرة ، مشحونة بالتوتر . كان وقتها يحاول العثور على الجملة المناسبة التى يبدأ بها . وحين هم الكلام ، اقتحمت البنت الصغيرة باب الحجرة ، ودخلت قابضة بيدها على عنق زجاجة « بيبسى » .

دفعتها إليه ، فتناولها فى صمت وركنها بجواره .

ابتدرته مرة أخرى بسؤال :

- إياك تكون بلغته الوصية اللى قلتها لك آخر مرة .

لم يكن يتذكر تماماً ، لكنه هز رأسه موافقاً . قالت :

- تعرف . أنا كان قلبى حاسس إنك جاى . عملت الكعك مخصوص علشانه والنبى تفتكر تأخذ له معاك .

وأحس بالحنق على نفسه ، وشعر بأنه قد تورط مرة أخرى .. وعندما هم بكلام ، لمح عينيها تغرورقان بالدموع ، وسمعها تحادثه فى صوت نائح قائلة :

- إنت عارف حضرتك .. أنا ما ليش فى الدنيا غيره .. أنا لو كنت قادرة كنت رحت له بنفسى لكن ما باليد حيلة . اسمع أنا حاديلك جواب توصله له . أنا كاتبه له إني حامل ، حاولد قريب .. ولازم يكون جنبي ، ضرورى أشوفه .. والعيال كمان بدهم يشوفوه .

سكت برهة ، وأطرق برأسه ، وشعر بأنه غير قادر على الكلام ، وسمع صوتها مرة أخرى يسأله فى نبرات ضارعة :

- إياك يكون بعت معاك الأمانة .. أنا كتبت له أكثر من جواب حكيت له عن الظروف الصعبة اللى بنقابلها . إنت حضرتك يعنى موش غريب .

مد يده بحركة آلية وأخرج من جيب بنطلونه الخلفى ، مظروف مقفل كان قد أعده من قبل . ناوله لها فى خجل دون أن ينبس بحرف . مدت يدا مرتعشة وأخذته وهى تدعو له دعوات ساذجة ضاعفت من خجله ، ثم نهضت من جانبه وغابت فى المطبخ .

شعر بضيق شديد يستولى عليه ، وتمتم من بين شفتيه بضع كلمات مبهمة ، وحين هم بالنهوض ومغادرة هذا المكان إلى الأبد ، أقبلت الأم مرة أخرى ماسكة بين أصابعها بلفافة صغيرة قالت وهى تناولها له ، وتناوله معها مظروف مغلق : وصل له الجواب ده ، وبلغه أنه ضرورى ينزل أجازة .

وأومأ برأسه وابتسم ابتسامة جافة لا لون لها ، وهبط درجات السلم بسرعة وصدره يعتمل بشتى المشاعر . وعندما احتواه الحوش المظلم ذو

الرائحة العطنة تهاوى جالساً على إحدى الدرجات ، وأخذ يلتقط أنفاسه ، ثم مد يده فى جيبه وتناول ذلك الخطاب ومزقه .

فكر وهو يغالب دموعه فى أنه قد أخطأ تماما بالمجىء إلى هنا ، وعندما هم بالنهوض انتبه فجأة إلى اللفافة التى يمسكها فى يده .. هز رأسه فى أسى ومسح دمعة صغيرة أفلتت من بين جفونه وفكر فى أن صاحب هذه اللفافة لن يتسنى له أن يعرف طعمها أبداً .

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة في تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سرأ	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلاموني
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحي
١٠- لكن	شعر	هدى حسين
١١- أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق

١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيلة
١٥ - الأسماء لا تليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - أفراخ الحمام	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان

لجنـة الكتاب الاول :

غـير ملزمة بإعـادة أصول الأعمال إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

•• الفهـــرس ••

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٧٩٦ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 974 - x)



قصص كلاسيكية ذات حس معاصر تتميز باختيار زاوية الرؤية ، وصفاء العدسة اللاقطة وانتخاب لحظات وصور غنية بالعطاء . عالم الجنود بعد الحرب هو ما يشغل المحور الأساسى لقصص هذا الكتاب . أولئك الجنود الذين شوهتهم الحرب ولم تترك لهم إلا البؤس والشقاء والألم .



